الدكتور محمد أمين المصري

المجتمع الإسلامي

دار الأرقم
الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

طبع بإذن ورثة المؤلف

الطبعة الأولى

١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م

محاضرات إسلاميّة

بناء المجتمع

وجهة التعليم في العالم الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فيسرنا أن نقدم للإخوة القراء الجزء الثالث من « محاضرات إسلامية » لفضيلة الدكتور محمد أمين المصري رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جنانه .

ولقد جمع - رحمه الله - بين الاختصاص بالحديث النبوي الشريف ودراسة علم النفس ، وكان له أثناء رحلته لاوربا وقفات مع المستشرقين لا تنسى ... تحدث عن بعضها الدكتور مصطفى السباعي - رحمه الله - في كتابه « السنة ومكانتها في التشريع » .

وهو - رحمه الله - جمع بين العلم والعمل ، فزاول العمل الاسلامي والدعوة الى الله منذ أوائل الخمسينات ، وخرج بتجارب واسعة في هذا الميدان لما بذل من جهود ، ولما قدم من ايجابيات في صلاته مع أعلام الدعوة الاسلامية .

ومن يكثر مِن ذكرهم : الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ حيث اتصل به أثناء دراسته في مصر .

والاستاذ أبو الاعلى المودودي ـ رحمه الله ـ الذي اتصل به عندما كان « ملحقاً ثقافياً » في باكستان .

وكان صريحاً عندما يتحدث عن تجربته في العمل الاسلامي ، وكثيراً ما يدين نفسه ويتهمها بالتقصير .

... لقد كان ـ رحمه الله ـ علماً من أعلام الدعوة وموجهاً ومعلماً للجيل الذي نحن منه ولمن بعدنا أيضاً .

وفي المحاضرة الاولى يتحدث فضيلته بلغة علمية موضوعية عن بناء المجتمع : تعريفه وأسس تكوينه وبنائه ، ويبين أثناء ذلك توفر كل مقومات المجتمع للمجتمع الاسلامي .

وفي المحاضرة الثانية : يتحدث ـ رحمه الله ـ عن موضوع هام جداً ألا وهو التعليم ووجهته في العالم الاسلامي .

ونترك القارىء يعيش مع كلمات المؤلف آملين أن يجد فيها ما ينير له الطريق .. والله من وراء القصد وهو يهدي سواء السبيل .

الناشر

١٠ صفر ١٤٠٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعين به ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلاهادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ...

في هذه الصفحات نهدف إلى معالجة موضوع من الموضوعات الهامة ، هو واقع المجتمع الإسلامي وسبيل النهوض به . وهذا الموضوع هو موضوع الساعة ، وهو الموضوع الذي يجب أن تتضافر على معالجته أقلام الأعلام من كتاب المسلمين تشخص أمراضه وتعالج عيوبه وتصف دواءه ، ولست أضع نفسي في المنزلة التي تسمح لي بمعالجة مثل هذا الموضوع ولكن أسند إليّ تدريس هذه المادة ، مادة المجتمع الاسلامي الحاضر منذ ثلاث سنوات في كليتي الشريعة والتربية في مكة المكرمة فتكونت لدي بعض أفكا

في بعض جوانب الموضوع لعل من الخير أن تعرض على القارىء الكريم .

وقبل الدخول في صميم الموضوع لا بد من تقديم بعض مفاهيم تعتبر أساسية في البحث . وعليه لا بد من بيـــان المراد من كلمة مجتمع أولاً ومعنى المجتمع الإسلامي ثانياً .

محمد أمين المصري

* * *

بناء المجتمع

أ ـ ماذا يعني الباحثون بكلمة مجتمع :

لبيان ذلك نقول : خلق الإنسان ألوفاً بطبعة ، وفطر على الاجتماع ، وليس بوسع إنسان أن يعيش وحده ، ولقد ذكر المتتبعون لشؤون هذا الإنسان بأن أقصى أنواع التعذيب للانسان حبسه في سجن انفرادي ، ذلك أن الفرد يستمد كثيراً من معاني إنسانيته من وجوده في جماعة ينعم فيها بشعور المودة ـ بينه وبين أفرادها ـ والأمن من وراء ذلك والطمأنينة إلى أن من حوله يشاركونه أفراحه وآلامه ويمدونه ويستمدون منه معاني تتم فيها وحدة الجماعة .

ومن أجل هذا كله يظل الإنسان حتى في ساعة انفراده يذكر من حوله من إخوانه وخلانه وعشيرته ، لا ينقطع شعوره عن الاشتغال بهم والاهتمام بشؤونه وشؤونهم .

وعلى هذا فليس هنالك حادثة نفسية واحدة يمكن أن تتم دون أن يكون لها صلة بأفراد المجتمع الذي يعيش المرء فيه . هب أنك كنت في حالة تذكر أو تصور ، أو أن خيالك قد شرد بك وذهب كل مذهب ، إنك ـ في كل هذه الأحوال ـ تجد إذا

تأملت بنفسك أن هنالك شخصاً أو أشخاصاً تناجيهم في حال انفرادك وتلفي نفسك قائماً بينهم ، فأنت تتذكر اسم إنسان تعرفت إليه منذ عهد قريب ، أو تحاول أن تسترجع صورته أو تحلم بأنك في أرض نائية بعيدة لا تعرف فيها أحداً ولا يعرفك أحد ، وأنت تبحث عن صديق يؤنس وحشتك ويكشف كربتك .

يستحيل أن تنفرد بنفسك انفراداً تاماً ، وفي هذا آية من آيات الخالق المبدع جل جلاله . يحسب هذا الانسان أنه مستغن عن أقرانه قادر على البعد عنهم ، والحق أنه شديد اللصوق بهم لا يستطيع أن ينفك عنهم ... وفي هذا من العبرة ما فيه ، وفيه ما يدعو الفرد إلى الحد من أنانيته وشعوره بأنه يجب أن يعيش لنفسه ولمصلحته .

حاجة الفرد إلى الفرد كحاجة العضو إلى العضو والخلية إلى الخلية ، وكل هذا ينعكس على حياته النفسية ، فهو لا ينقطع لحظة واحدة عن الجماعة التي هو فيها في نومه أو يقظته ... ولقد عبر الباحثون النفسيون عن هذا كله بأن كل حادثة نفسية لا بد أن يكون لها مجال اجتماعي تنطلق فيه وتتم فيه ، وبتعبير آخر : كل حادثة نفسية لا بد لها من إطار اجتماعي يحفها ويحيط بها . والعكس صحيح أيضا فكل حادثة اجتماعية لا بد لها من أصل نفسي .

ومن هنا تتبين الصلة بين علم النفس وعلم الاجتماع ، فعلم النفس يدرس خصائص الأفراد من حيث أنهم أفراد لهم سلوك ،

وهذه الخصائص وذاك السلوك كل منهما لا يمكن أن يتم إلا في جو اجتماعي • ويمكن أن نقول إن علم النفس يدرس موضوع وعي الأفراد ، وهذا الوعي يعبر عن ذاته في إطار اجتماعي عن طريق العلاقات الاجتماعية ، وفي كلتا الحالين يدرس الموضوع من وجهة النظر النفسية •

أما علم الاجتماع فيدرس الصلات بين الأفراد ، وهـذه الصلات لا بد لها من أساس نفسي • وفي هـذه الحال يدرس الموضوع من وجهة النظر الاجتماعية •

ويبدو جلياً ـ مما سبق ـ أن علم النفس وعلم الاجتماع كليهما يدرسان حقيقة واحدة هي الحقيقة الواقعة التي لا تقبل تجزئة ولا انقساما ، ولكن كلا من البحثين ينظر إلى هذه الحقيقة من زاويته ، وكلاً من الموضوعين يختص بجانب من جوانب تلك الحقيقة • يجب أن يتضح لنا أن الأفراد بخصائصهم وسلوكهم ، لا يمكن أن تفهمهم بحال وهم منفصلون بعضهم عـن بعض ، وكذا الصلات بين الأفراد يستحيل فهمها وهي منفصلة عـن الأفراد الذين هم الوحدات التي تنتهي إليها الصلات الاجتماعية •

ونعيد ما ذكرنا من قبل : « كل حادثة نفسية لا بد لها من مجال اجتماعي أو اطار اجتماعي ، وكل صلة اجتماعية لا بدَ فيها من عامل نفسي » •

وهكذا فالباحث في المجتمع وهو يدرس الصلات الاجتماعية، هو في الوقت نفسه من طلاب علم النفس • والباحث في الدراسات النفسية وهو يدرس سيكولوجية الأفراد من خصائص وسلوك ، هو من طلاب علم الاجتماع • وهذا التداخل في الدراسات النفسية والاجتماعية ينتهي بنا إلى أن نقرر أن الفارق بين علم النفس وعلم الاجتماع إنما هو في الجانب الذي نهتم به ونؤكد عليه في دراسة حقيقة واحدة هي الحقيقة الاجتماعية الواقعة •

ولا ننسى أننا بصدد بيان معنى كلمة مجتمع ، وكل ماذكرنا يدور حول ما فطر عليه الانسان من الاجتماع ، وعلى هذا فالاجتماع : تعبير عن غريزة مستكنة في أعماق نفس هذا الانسان، والجماعة صفة لازمة من صفاته •

وإذا وجدت الجماعة ، وجدت الصلات بين أفراد هذه الجماعة : كصلة الآباء بالأبناء وصلة الأقرباء بالأقرباء وصلة الجوار وصلة الصداقة وصلة العالم بالمتعلم والحاكم بالرعية ، وإن صلة الطالب بمدرسته تنطوي على أنواع منها : صلة الطالب بأساتذته وإخوانه والبيئة المشرفة على المدرسة ، وأنواع الجمعيات التي تظهر بأنواع من النشاط في المدرسة •

ومن الصلات الاجتماعية أيضاً : صلة العامل برب العمل وصلة الناخب بممثله السياسي وصلة الفرد بعميد الأسرة وأفراد العشيرة وما إلى ذلك • وما هذه الأمثلة التي ذكرنا إلا شيء يسير

جداً من أنواع الصلات الاجتماعية الكثيرة القائمة بين الناس كالصلات الاقتصادية والمهنية والعلمية والفنية والقبلية والصلات الودية والصلات العدائية ••• إذا لاحظنا كل هذه الأنواع تبين لنا مقدار عموم لفظة الصلات الاجتماعية ومدى شمولها •

يتضح مما سبق أهمية الصلات الاجتماعية في تكوين بنية المجتمع ، كما نلاحظ أيضا أن العنصر الأول في بناء المجتمع : هو الأفراد الذين يكوّنون الجماعة ، والعنصر الثاني في بناء المجتمع : ما ينشأ بالضرورة عن وجود الجماعة من الصلات بين أفرادها • ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا : إن المجتمع نسيج مكون من صلات اجتماعية •

لزيادة إيضاح معنى الصلة الاجتماعية : نقابلها بالعلاقات القائمة بين الكائنات المادية ، ذلك أن هنالك علاقات اجتماعية • وبضدها تتميز الأشياء ، فهنالك صلة بين الشمس والأرض وصلة بين الدخان والنار وصلة بين عنصرين كيماويين • وكل من هذه التي ذكرنا يتأثر بوجود صاحبه ، وبينهما صلة ثابتة مستقرة ، إلا أن الصلة بينهما ليست صلة اجتماعية • ونستطيع أن نكتشف الفرق فنرى العامل النفسي قائماً موجوداً في كل صلة اجتماعية منعدماً مفقوداً في جميع الحالات التي أشرنا إليها • فالشمس والأرض ليس واحداً منهما منتبهاً ـ بأي معنى عقلي ـ إلى وجود الآخر ، والصلة القائمة بينهما ليست محددة بأي حال بإدراك

متبادل من أي أنواع الإدراك الذي يعرفه الانسان ، وإذا لم يتحقق هذا الشرط فلن توجد أية صلة اجتماعية ، وإذا لم توجد أية صلة اجتماعية فلا سبيل إلى قيام مجتمع ٠

وهكذا فالمجتمع يقوم حيثما تسلك الكائنات الاجتماعية فيما بينها سلوكاً يعينه إدراك كل جانب منها للجانب الآخر ، وهذا السلوك نعبر عنه بالصلات الاجتماعية تلك الصلات التي يحددها الإدراك المتبادل بين الجانبين ٠

وهذه الصلات كما ذكرنا تتنوع وتتعدد ويتصف المجتمع تبعا لكثرتها وتنوعها بالتعقد ٠

وهذه الصلات تنظم وتنسق ، وينشأ عن دراستها وتنسيقها نظام غايته أن يضبط سلوك الجماعة ويوجه سلوكها ، وهنالك يكون للجماعة نظام قائم وتتخذ الجماعة وسائل شتى لاحترام هذا النظام وتطبيقه ٠

ومهمة هذا النظام أن يطلق نشاط الأفراد في مجالات ، ويحبس نشاطهم في مجالات أخرى ، وأن يضع لهم مقاييس للسلوك تقوّم الأمور تبعاً لها فتعتبر بعض الأمور كريمة محببة ويعتبر بعضها الآخر كريهاً مذمماً ٠

ولقد نظمت الأديان السماوية سلوك الناس ،وهدتهم إلى الخير والرشاد ٠ فالبشرية مدينة للأديان السماوية بكل ما فيها من

خير ورشد وصلاح. وليست الأنظمة التي تضعها الجماعات البشرية خيراً كلها ، وليست في سبيل الرشاد في كل حين بل لقد انطوت كثير من الأنظمة في كثير من أيام التاريخ لدى كثير من الأمم على ظلم وعسف ، وليست الأنظمة التي سنتها المدنية الغربية الحاضرة، ــ ونذر الشر تحيط بها وصيحات الدمار تحف بها ، باعتراف كثير من منصفي العالم الغربي ــ بالأنظمة التي تؤدي إلى السلام .

هذا النظام هو العنصر الثالث في سنة بناء المجتمع ، فلا بد في المجتمع إذن من أفراد ، وصلات اجتماعية يحددها العرف المتبع ، وأنظمة تضبط سلوك الأفراد وتبيح لهم الانطلاق في ميدان وتكبح جماح انطلاقهم في ميدان آخر . وينبثق عن كل هذا سلطة يفترض احترامها .

وهذا النسق الذي يشمل كل ما ذكرنا ، دائم التغير لا يستمر على حال . وأخص صفاته أنه لا يثبت ، ولذا يرى بعض الباحثين تشبيه المجتمعات بالكائنات الحية تنمو وتتبدل خلاياها في كل لحظة ولا تستقر على حال واحدة ، وهي تمر بمراحل تبدأ بمرحلة الطفولة وتصل الى الرشد وتبلغ أشدها وغاية قوتها ثم تنحدر الى الهرم والشيخوخة ، وهذا التشبيه قائم على دراسات عميقة واستقراءات كثيرة .

ومن بين الصلات الاجتماعية ما يعبر عن نزاع قائم وعداء محكم ، ومثال ذلك الحالة القائمة بين جيشين متحاربين أو قوتين متنازعتين ، إن الجيوش في ميدان القتال لا تملك أن تفكر في شيء إلا بتلك القوى المحاربة التي تهدد وجودها ، وتؤثر تأثيراً كبيراً في كل أعمالها وتصرفاتها . هذه الصلة التي تربط بين القوى المتحاربة هي صلة اجتماعية بوجه ما ، ولكنها صلة سالبة لا يمكن أن تعتبر الصلة الأساسية القائمة بين أفراد مجتمع . وقد يقوم أنواع من النزاع بين أفراد أو كتل في مجتمع ما ولكن عنصراً أساسياً بين أفراد المجتمع لا نجده في مثال الجيشين المتحاربين هو فكرة الوجود في جماعة والانتماء إلى هيئة واحدة .

إن علم الاجتماع يدرس الأسباب التي تؤلف بين الناس وتلك تفرق بينهم ، ويدرس هذه وتلك على حد سواء . ولكن الدراسات الاجتماعية نفسها قد أدت إلى أن فكرة الجماعة إذا فقدت ، والصلات القائمة على التعاون والتكافل إذا انعدمت ، فمن المحال أن توجد نظم اجتماعية ، ولن يكون على أثر ذلك مجتمع ولا صلات اجتماعية ، ولن يبقى بعد ذلك موضوع يدرسه الاجتماعيون .

فالصلات التي يركز عليها علم الاجتماع اهتمامه : هي تلك الصلات التي تقوم على الادراك المتبادل والشعور بالانتماء إلى هيئة واحدة .

ولا يتم هذا الشعور إلا بوجود مبدأ يصدر عنه أفراد الجماعة وعقيدة يشترك جميع الأفراد في احترامها والحفاظ عليها والدفاع عنها ، وهذه العقيدة المشتركة هي العنصر الرابع في بناء المجتمع وهي أعظم العناصر السابقة أهمية وأكبرها خطراً ذلك أنها تتحكم فيها كلها ، وتوجهها جميعها الوجهة التي ترضاها ، فهي التي تحدد الصلات الاجتماعية وهي التي ترسم نهج السلوك، وهي التي تضع قواعد المجتمع ، وتقيم نظمه وتهدي إلى مُثُله .

ب ـ المجتمع الاسلامي :

تبين في الصفحات السابقة أن المجتمع مكون من أفراد ، وصلات اجتماعية يحددها العرف ، وقوانين مرسومة ، وأنظمة متبعة ، وسلطة تسيِّر أمور المجتمع ، وفوق هذا كله وأهم من هذا كله شعور بالإنتماء إلى هيأة واحدة وجماعة واحدة ، وعقيدة يشترك جميع الأفراد في احترامها والحفاظ عليها والدفاع عنها . ولقد حان الوقت أن ننتقل الى تحديد معنى المجتمع الاسلامي فنقول :

المجتمع الاسلامي : هو ذاك المجتمع الذي تميز عن المجتمعات الأخرى بنظمه الخاصة وقوانينه القرآنية وأفراده الذين يشتركون في عقيدة واحدة ويتوجهون الى قبلة واحدة ولهذا المجتمع وإن تكوّنَ من أقوام متعددة وألسنة متباينة خصائص مشتركة وأعراف عامة وعادات موحدة .

ووحدة المجتمع الإسلامي لا يقاس بها وحدة أي مجتمع آخر ، دلك أن الرابطة التي تربط أفراد هذا المجتمع على اختلاف ألوانه وأجناسه ، رابطة قوية الأواصر وثيقة العرى . ويزعم أناس ممن تأثرت عقولهم بمعاني القوميات الجديدة ، أنه لا وجود لمجتمع إسلامي وأن الأقوم دراسة مجتمعات قائمة على معاني

القومية الضيقة كدراسة المجتمع العربي ، وهذا ما اتجهت إليه بعض الحكومات العربية الحاضرة حين أسفرت عن عدائها للإسلام ، وهذا هو الفارق بين الدعوة إلى الجامعة الاسلامية والدعوات الأخرى المنابذة المعادية التي تريد أن تحصر جهودها في نطاق القوميات الضيقة .

إن الرابطة التي تربط أفراد المجتمع الإسلامي ، هي رابطة الإيمان بالله وهي رابطة الفكرة ورابطة العقيدة ، وليست رابطة الدم ولا النسب ولا العصبية ، هي أشرف الروابط وأوثقها ، وليس لرابطة من الروابط أن تحل محلها أو تدانيها ، وإذا كانت الوثنية تتطور من حال إلى حال وتلبس في كل جيل لبوساً ، فوثنية هذا العصر عبادة القوميات التي يريد لها أصحابها إيماناً بها كإيمان المؤمن بربه .

في المجتمع الإسلامي ، مقومات المجتمع القوي المتماسك ، وأعظم هذه المقومات كما رأينا وحدة العقيدة ووحدة النظام المنبثق عن العقيدة القائم في ظلها ، ووحدة العادات ووحدة الأعراف . وإنّ طابع المجتمع الإسلامي طابع واضح متميز ؛ وخصائص هذا المجتمع تكاد تكون واحدة في قاصي البلاد ودانيها . فالمستوى الفكري والعقبات التي تعانيها مختلف البقاع والمستوى الإنفعالي وطريقة مواجهة المشكلات وهجمات الأعداء ومخططاتهم وينابيع الخير الكامنة والطاقات الدفينة وما خلفت

الأجيال من تقصير وركود ، والمشاركة في ماض واحد وتراث واحد، ورجالات مضى لهم في التاريخ ذكر وثقافة واحدة وحضارة مشتركة ، كل هذه تكاد تكون واحدة في كل البلاد الإسلامية... حتى المحاسن والمعايب تكاد تكون واحدة ، والقدر المشترك كبير جدا على رغم تعدد اللغات وتباين بعض الأعراف .

أما الصلات التي تربط بين أفراد هذا المجتمع على تباعد الديار وتنائي الأوطان ، فهي صلات وثيقة محكمة ، ويشعر بهذا شعوراً واضحاً كل من استمسك بعقيدة المجتمع الإسلامي وذاق حلاوة الإيمان ، وعرف معاني الأخوة الإسلامية ، ولا يتنكر لهذه المعاني إلاّ أولئك الذين حرموا حلاوة الإيمان وفقدوا معاني العقيدة وتجهموا لاخوانهم في المشرق والمغرب .

ج ـ تماسك افراد الجماعة :

ولزيادة الموضوع إيضاحاً وبحثه بحثاً علميا موضوعياً ،
لا نجد حرجاً فيعرض مايذكره الباحثون الاجتماعيون في موضوع
تماسك أفراد المجتمع .

يرى هؤلاء أن تماسك أفراد مجتمع ما ليس ظاهرة بسيطة ،
ولكنه ظاهرة تشتمل على معان شتى متعددة ، وتضم ألواناً من
الصفات والخصائص والأعمال ، تدل كل واحدة منها على مدى
تماسك الأفراد في مجتمع ما . ونذكر من ذلك ما يلي :

١ ـ انتظام أفراد المجتمع في أنواع النشاط التي تفرضه
قوانين المجتمع وتتطلبها غاياته ، دليل على تماسك أفراد المجتمع ،
فكلما كان عدد الذين يلتزمون القيام بالواجبات والذين يسهمون
بأنواع الجهاد التي يتطلبها المجتمع كبيراً ، كان ذلك دليلا على
وحدة الأفراد وحسن تماسكهم .

والواقع أن معنى الالتزام والقيام بما تأمر به شريعة المجتمع
هو الجانب العملي في العقيدة ، وهو دليل على قوة الاستمسال
بالعقيدة . إذ العمل جزء من العقيدة مرتبط بها يعلو بعلوها
وينحط بانحطاطها .

وإسهام الأفراد في أداء الواجبات والقيام بها قد اتخـ

مقياساً لتماسك المجتمع ، وهو مقياس لقوة العقيدة فهو مقياس صحيح لتماسك المجتمع .

وإذا قارنا أعمال المسلمين اليوم بعمل أسلافهم ، وجدنا البون كبيراً جداً . والوحدة التي في صفوف أولئك والتماسك الذي كان بين أفرادهم ... كل ذلك لا يشبهه وحدة ولا يصل إلى درجة تماسك . ولكن المجتمع الإسلامي الحاضر ـ وإن مني بما مني به ـ يتطلع إلى مجتمعه الأول ، وينزع إلى أنموذجه الأوحد ويحنّ حنيناً شديداً إلى أيامه الأولى ، ويؤمن إيماناً لا يداخله ريب أنه مدرك في يوم من الأيام غايته .

٢ً ـ ومن المعاني التي درسها الباحثون الاجتماعيون التي يمكن أن تعتبر مقياساً لتماسك أفراد الجماعة : مدى انصياع أفراد الجماعة للمعايير التي تحدد قواعد سلوك أفراد الجماعة . وهذا المعنى مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعنى الذي سبقه ، ذاك التزام عملي بالواجبات ، وهذا التزام وجداني بالقيم التي تحترمها الجماعة ... فما تراه خيراً فهو خير وما تراه شراً فهو شر .

ونجد في هذا الجانب أن غزو الأعداء وحملاتهم المخططة ، قد أدت إلى خروج كثير من أبناء المجتمع الإسلامي على قواعد سلوك الجماعة غير مبالين بتجهم النظرات إليهم ورميهم بالخروج على قواعد الجماعة ، وقد التبس على هؤلاء الأمر فزعموا أن روح التقدم تقتضي مثل هذا الخروج .

٣ً ـ ومن المعاني التي بحثت : احتفاظ الأمة بتماسكها في أوقات الأزمات ، وقد وجد أن الجماعات المنظمة أقل عرضة للتفكك من الجماعات غير المنظمة •

٤ً ـ وكذلك درس مدى تأثير المجتمع في حياة الأفراد الوجدانية ، بمعنى مدى جاذبية المجتمع لأفراده ••• أهي جاذبية قوية أم جاذبية منخفضة ؟ وقد وجد أن الأفراد في الحالة الأولى يميلون إلى اللصوق بمجتمعهم ، والأمر على العكس في الحالة الثانية •

٥ً ـ وكذلك وجد أن شعور الأفراد بانتمائهم إلى مجتمعهم وتحدثهم عنه بدلاً من تحدثهم عن ذواتهم ، دليل على تماسك أفراد الجماعة • وكذلك الشعور بالود والولاء بين أفراد المجتمع وتعاون الأفراد في سبيل غاية واحدة واستعدادهم لحمل رسالة هي رسالة أفراد المجتمع والدفاع عنها أمام الهجمات التي تصب عليهم من خارج مجتمعهم ،والنقد الذي يوجه إليهم ، كل ذلك دليل على تماسك أفراد المجتمع •

ولقد وجد الباحثون الاجتماعيون أن الروح المعنوية : والاتحاد ، وتنسيق الجهود ، والانتاج ، والقوة ، والاندماج بالعمل والقيام به بسرور وانشراح صدر ورضا نفس والشعور بالانتماء ،وشعور كل فرد بوظيفته في الجماعة ومكانته فيها ومكانة الجماعة في نفسه ، والتعاون والعمل المقترن بروح الجماعة

والانجذاب نحو الجماعة والخوف من التخلي عنها ، كل هذه معان تدخل في مفهوم تماسك الجماعة ...

ويمكن تصنيف هذه المعاني ووضعها جميعها تحت عنوانين اثنين فحسب . أولهما : الروح المعنوية ، وهي المستوى النفسي الذي يدفع بالأفراد للقيام بعملهم بحماسة وقـوة . والثاني : مجموعة القوى والبواعث التي تجذب الأعضاء إلى الجماعة ، وتحملهم على البقاء فيها وكراهية الخروج منها .

الروح المعنوية :

وليست الروح المعنوية أمراً مستقلاً عن البواعث التي تجذب الأعضاء إلى الجماعة ، بل هما موضوعان متداخلان يؤثر كل منهما في الآخر . فازدياد الروح المعنوية في أفراد جماعة ، يؤدي إلى ازدياد معنى الإنتماء إلى الجماعة والاتصال بها ، وقوة الجذب تؤدي إلى ازدياد الروح المعنوية في الجماعة .

الروح المعنوية : هي الايمان بالجماعة ورسالتها وأهدافها ، وينشأ عن ذلك اعتزاز بها وحاجة إلى الإنتماء إليها وعدم الانفكاك عنها ، وشعور بالارتباط بأفرادها . وهنالك تنمو مشاعر الارتباط بالجماعة وينمو معنى التوحد الجماعي . وهذا الشعور شرط ضروري للمشاركة في الجماعة وتماسكها ، ولولا هذا الشعور ظل كل فرد منطوياً على نفسه متحفظاً في سلوكه منكمشاً عن أقرانه بعيداً عن الشعور بأي انجذاب نحوهم ، وهذه المعاني

تتسم بها المجتمعات الجاهلية والمجتمعات التي لا تربط بين أفرادها عقيدة واحدة • أما حين توجد وحدة العقيدة فيتم التآلف والاندماج ، ويتخلى الأفراد عن خوفهم وتحفظهم ويدركون أنفسهم في صلاتهم بإخوانهم ، وهنا يتم التوحد في الجماعة • وهكذا كانت الروح المعنوية سبباً في بناء الجماعة ، وهي في الوقت نفسه نتيجة له ، ذلك أن الجماعة لا توجد إلا إذا بدأت الروح المعنوية ، وإذا وجدت الجماعة ازدادت الروح المعنوية قوة وصلابة • إن الروح المعنوية قائمة على تقبل كل فرد للأفراد الآخرين ، وهي قائمة على قوة التجاذب بينهم جميعاً ، وهي في الوقت نفسه عامل هام في استمرار الجماعة وحفظها وقيامها في وجه الصعوبات التي تعترض سبيلها ، ثم إنها الوسيلة لتحقيق تنظيم الجماعة ووحدة سلوكها •

ومن الخصائص الهامة للروح المعنوية : ذوبان الفرد في جماعته وهيمنة رسالتها على نفسه واستيلاء قيمها وأهدافها على ذاته ، وبهذا تصبح رسالة الجماعة غرضه في حياته وتحقيق أهدافها غاية آماله ، من أجل ذلك يحيا ومن أجل ذلك يجاهد ، وينتهي هذا الارتباط بالجماعة إلى أن يصبح الفرد والجماعة وحدة لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر • ولم تتحقق هذه المعاني القوية الرائعة كما تحققت في حواري الرسل وصحابتهم وأتباعهم•

وهكذا نرى الروح المعنوية واستغراق الفرد في الجماعة وقوة جاذبية الجماعة للفرد ، كلها معان متقاربة متداخلة لا يمكن أن يتم أحدها دون المعاني الأخرى ولا يمكن أن يتم أحدها دون أن تتبعه المعاني الأخرى •

ولعل من الخير أن نزيد موضوع جاذبية الجماعة بياناً ووضوحاً ، فإذا تساءلنا عن مصادر جاذبية الجماعة ؟ أجابنا الباحثون الاجتماعيون : ان أول هذه المصادر وأهمها هو الجماعة نفسها للأهداف النبيلة الواضحة التي ترمي إليها الجماعة ، تلك الأهداف التي لالبس فيها ولا غموض • وللغايات الكريمة التي لا تتنزل عن سموها ، ومن ثم للأفراد الأفذاذ الذين ينضمون تحت لواء الجماعة وما يتصفون به من صفات البطولة • وبعد هذا كله اتضاح الوسائل التي تبلغ بها الجماعة أهدافها ثم سيرها في السبيل التي تحقق غاياتها سيرا حثيثا دائبا مطردا •

فالوضوح والقوة يجب أن تتصف بهما الغايات والوسائل ، ثم السير والتطبيق واجتياز مراحل التنفيذ ، كل هذه تفعل فعلها في جاذبية الجماعة •

وإلى جانب ما ذكر عوامل تؤثر في موضوع جاذبية الجماعة تأثيراً قوياً ، وهي لاتخرج عن أصول المعاني السابقة ، ولكنها تندرج تحتها وتنفرع عنها ؛ ومن ذلك ما يلي :

١ ـ مكانة الفرد في الجماعة :

مكانة الفرد في الجماعة عامل من العوامل الهامة في قوة جذب الجماعة ، وإنه لأمر فطري أن ينجذب الفرد إلى الجماعة التي يجد فيها ضالته التي كان ينشدها من نجاح جهوده وتقدير مساعيه وتحقيق ذاته ، فكلما كان للفرد في جماعة مكانة مرموقة تضاعفت القوى التي تدفعه إلى زيادة التعلق بالجماعة والارتباط بها .

وليس من شك أن مكانة الفرد في جماعة ، يجب أن تكون موازية لكفاءته ، متناسبة وجهوده . والجماعة التي تقيم العدل وتزن بالقسطاس المستقيم ، هي الجماعة التي ترضي أكثرية أفرادها وتقر في نفوسهم الطمأنينة . أما الجماعة التي تحابي بعض أفرادها لأسباب غير عادلة ، فهي جماعة تشيع فيها روح السخط والتبرم والانتقاد اللاذع وتنتهي الأمور الى تصدع الألفة وتداعي بناء الوحدة .

والأمثلة الرائعة فيهذا المعنى تستقى من الجماعة الأولى التي أنشأها محمد عليه الصلاة والسلام ، فقد انتقل فيها الموالي من أدنى درجات الظلم والعسف والاضطهاد والتعذيب إلى أعلى مكانة في الأمة ، مكانة الإسهام في تدبير الأمور وقيادة الجماعة .

يروي ابن سعد في طبقاته بسنده : أن سالما كان لثبيتة بنت يعار الأنصارية وكانت تحت أبي حذيفة ، فأعتقته سائبة فتولى

أبا حذيفة وتبناه أبو حذيفة ، فكان يقال سالم بن أبي حذيفة ، ثم يذكر ابن سعد بسنده أن سالماً هذا مولى أبي حذيفة ، كان يؤم المهاجرين بقباء وفيهم عمر بن الخطاب لأنه أقرؤهم • ويذكر ابن سعد أيضا : أن رسول الله ﷺ آخى بين سالم مولى أبي حذيفة وأبي عبيدة بن الجراح • وروى ابن الجوزي في صفة الصفوة عن شهر بن حوشب قال ، قال عمر بن الخطاب : لو استخلفت سالماً مولى أبي حذيفة فسألني عنه ربي عز وجل ما حملك على ذلك لقلت : رب سمعت نبيك ﷺ يذكر سالما ويقول : « إنه شديد الحب لله عز وجل » •

٢ ـ الصلات التعاونية :

ومن العوامل الهامة في تماسك الجماعة : الصلات التعاونية بين أفراد الجماعة ذلك أن التعاون المشترك يؤدي إلى نمو روح الود بين أفراد الجماعة وييسر تأثير كل فرد على إخوانه وتقبل كل فرد منهم آراء الآخرين • أما الجماعات القائمة على التنافس فيتم الأمر فيها عكس ذلك • ومثال الأولى : مجموعة من الطلاب في فصل يتعاون أفراده على القيام بحل المشكلات التي يطلب إليهم حلها وقد وعدهم مدرسهم بأن الدرجات التي يدركونها بنتيجة عملهم تعتبر درجة المجموعة بكاملها وليس هنالك درجات للأفراد• ومثال الثانية : مجموعة تقوم جهودها على التنافس ، ويعطى كل

فرد فيها الدرجات التي تناسب مستواه • لقد وجد أن روح التماسك والتواد تنمو في الجماعة الأولى وتتضاءل في الثانية •

وإنه ليصعب أن تقوم جماعة وتستمر في بقائها إلا إذا كان هنالك فهم مشترك بين أفرادها ، إدراك لعدد كبير من الموضوعات إدراكاً يشترك فيه اتجاه البحث ووجهة النظر ؛ وكل هذا يتحقق عن طريق المشاركة في السير لتحقيق الأهداف وتحديد القيم ورسم القواعد ووضع الخطط •

٣ ـ ازدياد التفاعل بين أفراد الجماعة :

والنتيجة الطبيعية لتعاون الأفراد : تقاربهم في التفاهم وتبادل الرأي فيما بينهم ، وتأثير بعضهم في بعض • ولقد قارن باحث اجتماعي بين فصول دراسية جامعية تسود في بعضها طريقة التدريس المتركز حول القائد ـ نعني المدرس ـ ، وفي هذه الطريقة يتولى المدرس القيام بالنشاط كله : يهيء محاضرته ويجمع مصادره ويبوب حديثه ويمهد بمقدماته ويصل إلى نتائجه ، والطلاب في كل هذا آخذون متلقون منصتون • وفي الفصول الأخرى اتبعت الطريقة التي تتركز على الجماعة : وفيها يكلف الطلاب بإعداد الموضوع وتحديد مشكلاته والبحث عن حلوله •• وقد وجد أن أفراد الفئات الثانية يسودها الود والتفاهم والولاء بين أفرادها أكثر بكثير مما عليه الحال في أفراد الفئة الأولى •

ومما هو جدير بالاعتبار في هذا الصدد دراسة نوع التفاعل بين الأفراد أهو سار أم غير سار ، ومقدار التفاعل ــ وهو متوقف على حجم الجماعة ــ وقد وجد أن الجماعات الصغرى في حجمها يغلب أن تكون أكثر تماسكاً من الجماعات الكبيرة في الحجم ، وقد يرجع ذلك إلى نقص التجانس بسبب زيادة حجم الجماعة ، وضعف الانسجام في اتجاهات الأعضاء وأنواع اهتمامهم والقيم التي يقدرونها ويلزمون أنفسهم باحترامها ، وكلا الأمرين ــ نقص التجانس وضعف الانسجام ــ يؤديان إلى الشعور بضعف أواصر الارتباط .

٤ ــ التشابه بين أعضاء الجماعة :

يستنتج مما سبق أن التشابه بين أعضاء الجماعة يؤدي على الغالب إلى زيادة تماسك الجماعة ، وإنه لمن الطبيعي أن ينشد الفرد الانضمام إلى الأفراد الذين يشبهونه . وقد تحقق ذلك في بحث تجريبي قام به الباحثون الاجتماعيون ، وكانت نتيجته أن التشابه يشكل أساساً للجماعة . والأمر الهام في هذه النقطة ، التفاعل بين الأفراد والتأثير المتبادل والصلات التعاونية .

٥ ــ الأحداث الاجتماعية :

وقد تحدث بعض الظروف الاجتماعية حاجات جديدة لدى كثير من الأفراد فتصبح بعض الجماعات ذات جاذبية جديدة . كذا يفسر بعض الباحثين زيادة الإقبال على أماكن العبادة في

المجتمع الغربي بعد أيام الحرب بما يساور النفوس من قلق وخوف اقترنا بأهوال العصر الذري •

وكذا النقد الذي يوجه إلى الجماعة من خارجها والضغط الذي يوجه إلى أعضائها ، كل ذلك يؤدي إلى تماسك الجماعة ويزيد ارتباط الأفراد بعضهم ببعض •

٦ ـ دور القيادة في تماسك الجماعة :

لا تستطيع جماعة من الجماعات مهما كان لونها أن تسير دون توجيه قيادتها سواء كانت هذه القيادة متمثلة في فرد أوجماعة أو في قيادات متسلسلة متدرجة • والقيادة الرشيدة هي التي تسخر جميع طاقاتها وكل قواها لحماية الجماعة وفي سبيل منعتها وقوتها واستمرارها • وتقاس كفاءة القائد بمقدار نجاحه في تنظيم الجماعة وتوجيه كل فرد للإسهام في خدمة أهداف الجماعة ؛ ولا يتم ذلك إلا بمعرفة دقيقة بالأفراد جميعاً ووزن صحيح لمواهبهم وخبراتهم في الحياة والمجالات التي يستطيعون النجاح فيها ، واتصال حسن بهم وفهم عميق لنفوسهم وروح اجتماعية قادرة على النفوذ والتأثير ،وتوسيد الأمور إلى خير من يقوم بها •• ونتيجة ذلك كله أن تسير الجماعة سيراً مطرداً ، وقد رضي كل فرد منها بمكانه وعمله فأدى من العمل أحسن ما يمكن أن يؤدي • إن كفاءة القائد تقاس أيضاً بما يحدثه القائد من تغيير في إنتاج الجماعة وحسن أدائها ، ومفتاح عبقرية القائد في معرفة بالرجال •

عزل عمر خالداً عن القيادة العامة وولاها أبا عبيدة ، فظل خالد يعمل جندياً تحت لواء أبي عبيدة وأمرته ، وانتهز خالد فرصة ففتح قنسرين وكان فتحها إحدى معجزاته الحربية ، وكانت كلمة عمر التي قرّظه بها حين أبلغه أبو عبيدة شأن خالد في فتحها شهادة من عمر بفضل أبي بكر رضي الله عنه ومعرفته بالرجال قال عمر : « أمّر خالد نفسه ، رحم الله أبا بكر كان أعلم مني بالرجال » .

الروح المعنوية ووضوح الأهداف ومشاركة الأعضاء في وضع الخطط لتحقيق الأهداف ، وفي رسم قواعد سلوك الجماعة ومثلها ، ودور القيادة ... كل هذه عوامل تؤثر في تماسك الجماعة ووحدتها .

وليس بخاف أن الروح المعنوية في المجتمعات الإسلامية الحاضرة ، ليست تلك الروح التي شهدتها القرون الأولى .

وأما غاية المجتمعات الإسلامية فهي واضحة لكل أفراد هذا المجتمع ... إنها رسالة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ولا يشذ عن رؤية هذا الدين إلا الذين تنكروا للمجتمع الإسلامي وجحدوا رسالته .

وأما إيمان أفراد المجتمع الإسلامي بحمل رسالتهم وتأدية الأمانة التي وضعت في أعناقهم ، فهو إيمان قد اعتراه كثير من اللبس والانحراف والغموض .

وبعد ، فليس بوسع المتأمل أن ينكر أن المعاني السابقة العاملة في تماسك أمة ، قد شحبت ألوانها وذهب رواؤها في كثير من المجتمعات الإسلامية . ولكن الباحث المنصف لا يفوته أن يلحظ أمرين :

أولهما : أنه ما تزال في المسلمين بذور هذه المعاني كامنة ولن تزال ولن ينقطع أثرها بحال ، وما يزال في المسلمين طاقات كامنة دفينة على رغم كل ما أصابهم ، وأن ومضة من ومضات الخير والرشد واتنباهة واحدة ، لكفيلتان بعودة الأمة إلى مكانتها .

والأمر الثاني مترتب على ما سبق : كل دعوة خير يجب أن تجعل غايتها إيقاظ المعاني السابقة .

أما الدعوات التي وضعها أعداء الأديان وأرادوا بها محاربة الإيمان بالله ، فما تزيد الأمة إلا شقاقاً وبعداً من غايتها ونكسة عن سبيلها ... فهل يفطن لذلك الذين فتنوا بها وكانوا الثلمة التي صنعها الأعداء ليدخلوا منها .

د ــ بين مسلمي اليوم والمجتمع الغربي :

المجتمع الإسلامي هو ذاك المجتمع الذي تميز عن المجتمعات لأخرى بنظمه الخاصة وقوانينه القرآنية وأفراده الذين يشتركون ي عقيدة واحدة ويتوجهون إلى قبلة واحدة ، ولهذا المجتمع وإن كـّون من أقوام متعددة خصائص مشتركة وأعراف عامة وعادات وحدة . ولكن المسلمين لم يحافظوا على حضارتهم ولم ستمسكوا بأوامر الله لهم في العبادة ، وفي تسخير قوانين الله في لمادة والنفس ...

فلو أن إنسانا سار في البلاد الشرقية الإسلامية ، وتنقل ب تطوافه من مدينة جاكرتا متجهاً إلى أقصى الغرب حتى بلغ دينة طنجة ، ومرّ في مسيرته هذه على مختلف البلاد الواقعة لى محور جاكرتا ــ طنجة لوجد ظاهرات اجتماعية تكاد تسيطر لى هذه البلاد جميعها .

ولو أن هذا الانسان نفسه بعد رحلته الأولى شرع في رحلة نية على محور آخر بادئاً من مدينة واشنطون متجهاً إلى موسكو حاولاً زيارة مختلف البلاد التي تقع حول هذا المحور ، لوجد هنا أيضا ظاهرات اجتماعية تكاد تسيطر على هذه البلاد جميعها تختلف اختلافا تاما عن الظاهرات الأولى .

في البلاد الثانية يلاحظ المتأمل ما يلي :

أ ــ فعالية هؤلاء الناس وحياتهم المملوءة جداً وحرصاً على وقت وتنظيمه .

ب ــ الاستفادة من هذا الحرص وهذا التنظيم لتكــوز
محصلة العمل الذي يتم أكبر محصلة ممكنة • ويترتب على هذا :

جـ ــ كون الفرد منسجماً مع العمل الذي يقوم فيه •

د ــ وجود دافع داخلي يدفعه إلى القيام بالعمل بسرور
ورضا ، فيبذل فيه أكبر جهده ويستفرغ غاية طاقته • وإلى جانب
هذه الفعالية التي تبدو جلية يلحظ المتأمل :

هـ ــ ظاهرة التخصص لدى أفراد المجتمع واضحة بالغ
حداً من الدقة • ونتيجة هذا كله :

و ــ وفرة الانتاج لدى هؤلاء وفرة تزيد عــن حاجاته
أضعافا كثيرة ، وشبيه بهذا المجتمع مجتمع النحل بما فيه مــ
فعالية وتخصص ووفرة بعد ذلك في الانتاج عظيمة •

يقابل هذه الظواهر في المجتمع الأول ما يلي :

أ ــ فعالية تكاد تكون منعدمة ونظرة إلى الوقت على أ
لا قيمة له •

ب ــ نشاط متجه إلى اللغو والحديث غير المنتج •

جـ ــ والقيام بالواجب مقترن بالشعور بثقله وكراهيته •

د ــ وفقدان الدافع التلقائي إلى القيام بالعمل ، ومعنى ذل
أن الدافع للعمل خارجي قسري يتصف بروح الإكراه ، وتنيـ
ذلك أن يؤدي العمل ناقصاً مبتوراً •

هـ ـ وبعد هذا كله فالتخصص مفقود والجهود مبعثرة .

و ـ والانتاج أضأل من حاجات المجتمع ولذلك كان هذا المجتمع عالة على المجتمع الثاني في حاجاته الحيوية .

من أجل ما سبق سُمي المجتمع الأول متخلفاً والثاني حضارياً . ولقد امتن بعض أفراد المجتمع الثاني على أفراد المجتمع الأول فرأوا أن يعدلوا عن تسميته متخلفاً إلى تسميته مجتمعاً آخذاً في النمو ، ولكن نواياهم الحقيقية مكان ارتياب كبير .

ومن أجل ما سبق فرض المجتمع الثاني على الأول سبقه وتقدمه وبالتالي وصايته وسيطرته ، كما فرض عليه ضرورة الاقتداء به وإسراع السير للحاق به .

ومن هنا كان من أهم الموضوعات التي لا بد لنا من بحثها في المجتمع الإسلامي صلته بالمجتمع الغربي ، ونحن نهتم بدراسة شيء عن المجتمع الغربي لغرضين اثنين .

أولهما : أن هذا المجتمع قد شق طريقه وفرض نفسه وأتى في عالم الاكتشاف والاختراع بما يأخذ بالأبصار ويفتن الناس ، وهو لذلك أنموذج جدير بأن يدرس ليعرف ما فيه من ضعف وقوة، وجدير بأن يدرس لتعرف العوامل التي أدت إلى نموه وتقدمه ، وهذا النمو جدير بأن يكون موضوع تأمل ليرى أهو نمو كامل يتناول جميع مظاهر الحياة أم هو نمو في نواح على حساب نواح أخرى .

وثانيهما : أن هذا المجتمع الغربي في نزاع مع المجتمع الإسلامي منذ زمن طويل يؤثر فيه ويتأثر به ، وهو منذ حقب من الدهر يحاول أن يطمس معالم هذا المجتمع ويمحو خصائصه ويفرض عليه تبعية كاملة له .

ولقداتصل الغرب النصراني بالشرق الإسلامي اتصال اعتداء مسلح طوال قرنين كاملين من الزمن ، من نهاية القرن الحادي عشر إلى آخر القرن الثالث عشر الميلادي ، وهو اعتداء الحروب الصليبية ، واختبر في هذا الاحتكاك عقيدة الإسلام في قوتها ، وضعف المسلمين في مجتمعهم ، وسعة ما يملكون من ثروة في بلادهم .

وليس بوسع الباحث الذي يرغب في دراسة واقع المجتمع الإسلامي أن يغفل موضوع هذا العداء بين الشرق والغرب النصراني والرجوع به إلى تاريخه الماضي وأيامه الأولى ، ولن يسعه أن يمرّ بهذا التاريخ دون أن يقف عند موضوع الحروب الصليبية يسائل عن الأسباب التي حملت نصارى الغرب على خوض غمار هذه الحروب قرنين كاملين من الزمن ، وكيف كانت حال المسلمين في ذلك الحين ؟ وما كانت نتائج هذه الحروب وآثاره في صلة المجتمع الغربي النصراني بالمجتمع الشرقي الاسلامي ؟

وللإجابة عن السؤال الأول ننقل إلى القارىء ما كتبه مؤرخ انكليزي معاصر اسمه (ستيفن رنسيمان) قام بالتدريس في

جامعات كمبردج وأكسفورد وسانت أندرو واستانبول ، وقد ألف كتابه عام ١٩٥٠ والكتاب مترجم إلى العربية ، يقول فيه :

(قدم البابا إيربان الثاني إلى فرنسة في أواخر صيف سنة ١٠٩٥ وترأس مجمع كليرمونت الذي انعقد في مقاطعة مليرمونت في الفترة الواقعة بين ١٨ نوفمبر إلى ٢٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ وقد شهده نحو ثمانمائة من رجال الدين ...

اغتنم البابا الفرصة وأكد ما لبيت المقدس من قداسة ، ووصف ما يعانيه الحجاج أثناء سفرهم من العذاب والمتاعب ، وبعد أن وصف الصورة القاتمة ، وجه نداءه الشهير وقد جاء فيه : « فلينطلق المسيحيون بالغرب لنجدة الشرق ، ينبغي أن يسير الأغنياء والفقراء سواء ، ينبغي أن يكفوا عن قتل أحدهم الآخر وأن يباشروا عوضاً عن ذلك القتال الحق ، فيؤدون ما أمر الله به أن يعمل ، وسوف يكون مرشداً وهادياً لهم ، ومن يلق مصرعه في المعركة تحلل من ذنوبه وغفر الله أخطاءه ، فالحياة هنا أضحت تعسة كثيرة الشرور ، بعد أن أضنى الناس أنفسهم في تدمير أجسادهم وأرواحهم . استبد بهم هنا الفقر والبؤس ، وسوف ينعمون هناك بالسعادة والرخاء ويكونون أصدقاء أوفياء لله فلا ينبغي التمهل والإرجاء ، فليستعدوا للسير عند حلول الصيف وليكن الله هاديهم » . تحدث إيرمان في حماس وبكل ما اتصف به الخطيب الشهير من براعة ، وكانت الاستجابة سريعة قوية إذ

تخلل الخطاب هتافات الحاضرين « هكذا أراد الله » ، ولم يكد البابا ينتهي من خطابه حتى نهض من مجلسه أسقف لوبويه فركع أمام عرش البابا والتمس منه الإذن بأن يلحق بالحملة المقدسة، وتزاحم مئات من الحاضرين لينتهجوا مثاله ، ثم ركع الكاردينال جريجوري على ركبتيه وأخذ يتلو بصوت جهوري قداس الاعتراف فيردده وراءه جموع الحاضرين . فلما انتهت الصلاة نهض إيرمان مرة أخرى وتلا التحلل وأمر سامعيه بالإنصراف إلى بلادهم) .

ومن الشخصيات التي تقترن بالحروب الصليبية وقد كان لها فيها أكبر الأثر : (بطرس الناسك) وهو جدير بألا يفوتنا بعض الحديث عنه .

يقول المؤرخ الانكليزي الذي سبق ذكره : (طلب البابا إلى أساقفته أن يبشروا للحروب الصليبية ، غير أن أشد التبشير تأثيراً كان ما قام بـه الرهبان ورجال الـدين أمثال روبـرت أربريسل ... بل أشد من ذلك ما قام به الراهب الطواف المعروف باسم بطرس . كان بطرس طاعناً في السن ، ولد بمكان قرب أميان والراجح أنه حاول منذ سنوات أن يؤدي الحج إلى بيت المقدس ، غير أنه تعرض للأذى من قبل الترك فأرغموه على العودة دون أن يؤدي الحج . عرفه معاصروه باسم بطرس الصغير غير أن ما اتخذه فيما بعد من رداء الزهد جعله معروفاً عادة باسم الزاهد الذي اشتهر به في التاريخ .

كان بطرس قصير القامة ، داكن اللون ، ذا وجه طويل نحيل ... درج بطرس على أن يسير حافي القدمين ، وقد ارتدى ملابس رثة ، لم يتناول في طعامه الخبز أو اللحم بل جعل غذاءه السمك واتخذ النبيذ شراباً له ، وعلى الرغم من حقارة مظهره فإنه ادخر من القوة ما كان يثير الرجال . أحاط به جو غريب من السلطة والفضول ، فيروي جيبرت نوجيت الذي يعرفه شخصياً فيقول : « ما يردده بطرس أو يعقله ، يتراءى على أنه من صنع الله » ...

وعلى الرغم من أن بطرس لم يشهد فيما يبدو مجمع كليرمونت ، فانه لم تكد تنتهي سنة ١٠٩٥ حتى أخذ يبشر بالحرب الصليبية . بدأ رحلته من برى ، وفي فبراير ومارس اجتاز أورليان وشامبانيا إلى اللورين ومنها إلى مدن الميز وآخن ثم إلى كلن حيث أمضى عيد القيامة ، وحشد من مريديه من أنفذهم إلى المناطق التي لم يكن بوسعه أن يزورها ، وأينما توجه بطرس أو نوابه غادر الرجال والنساء دورهم كيما يتبعوه ، فلم يكد يبلغ كلونيا حتى بلغ عدد أتباعه « ١٥ » ألف شخص ، وازداد عدد من انحاز إليه في ألمانيا ...) .

أكتفي إلى هنا بما نقلت عن المؤرخ الإنكليزي وأشعر أن شيئاً يحز في النفس ويدمي القلب ألا يجد العالم الاسلامي اليوم ـ وقد انتزع بيت المقدس من أيدي المسلمين للمرة الثانية ـ من يدعو إلى الحق كما دعا بطرس الناسك إلى شركه وضلاله .

لبت أوربة داعي الحرب وخرجت إلى الشرق مستجيبة لنداء البابا ولنداء بطرس الناسك ، وقد ورد في رسالة صلاح الدين إلى سلطان بلاد المغرب أن هؤلاء الأعداء قد خرجوا لقتال المسلمين رجالاً وفرساناً ، شيباً وشباناً ، زرافات ووحداناً ، براً وبحراً مركباً وظهراً .

وكتب القاضي الفاضل في إحدى رسائله[1] : « ما تأخر منهم متأخر، ولا استبعد المسافة مستبعد، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة، لا أموال تنفق فيهم ولا ملوك تحكم عليهم ولا عصا تسوقهم ولا سيف يزعجهم مهطعين الى الداعي ، ساعين في أثر الساعي وهم من كل حدب ينسلون ومن كل بر وبحر يقبلون » .

أما المسلمون فكانوا كما وصف القاضي الفاضل يخاطب صلاح الدين قال: «وليس لك من المسلمين كافة مساعد إلا بدعوى، ولا مجاهد إلا بلسانه، ولا خارج معك إلا بهم، ولا خارج بين يديك إلا بأجرة ، ولا قانع منك إلا بزيادة ، تشتري منهم الخطوات شبراً بذراع وذراعاً بباع ، تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم لنفسك ، وتسألهم الفريضة وكأنما تكلفهم النافلة وتعرض عليهم الجنة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم » .

---

(١) راجع كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ـ تأليف أبو شامة .

ويشبّه محمد أسد أيام الحروب الصليبية التي نشأت فيها كراهية النصارى الأوربيين للمسلمين بأيام طفولة المجتمع الغربي. فالحوادث التي تقع في طفولة المرء ، والانفعالات التي تمر به تغرس في نفسه وتبقى ذات أثر كبير في سلوكه مدى حياته .

يقول محمد أسد النمساوي الأصل الذي اهتدى للإسلام في كتاب الاسلام على مفترق الطرق : « إن الحروب الصليبية هي التي عينت في المقام الأول والمقام الأهم موقف أوربة من الإسلام لبضعة قرون تتلو . ولقد كانت الحروب الصليبية في ذلك حاسمة لأنها حدثت أثناء طفولة أوروبة ، في العهد الذي كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها ، وكانت لا تزال في طور تشكلها . والشعوب كالأفراد ، اذا اعتبرنا أن المؤثرات العنيفة التي تحدث في أوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهراً أو باطناً مدى الحياة التالية . وتظل تلك المؤثرات محفورة حفراً عميقاً ، حتى انه لا يمكن للتجارب العقلية في الدور المتأخر من الحياة المتسم بالتفكير أكثر من اتسامه بالعاطفة أن تمحوها إلا بصعوبة ثم يندر أن تزول آثارها تماما » .

وهكذا يؤكد هذا الرجل الذي عرف المدنية الغربية معرفة الذي عاش في أكنافها ورضع من لبانها وترعرع في جنباتها ، يؤكد أن الصلة القائمة بين الشرق الإسلامي والغرب النصراني هي صلة عداء مستحكمة وحروب صليبية دائمة .

ويرتب محمد أسد على الحقيقة السابقة أن هذا العداء ظل ثابتاً مستقراً في النفوس وإن زالت العوامل التي يبدو أنها كانت مسببة له • ويثير الموضوع بتساؤل ربما يدور في رؤوس كثير من أبناء المسلمين أنفسهم ملخصه أن تلك الأيام ــ أيام العداوة ــ قد انقضت ، ذلك أن المدنية الغربية قد تنكرت لدينها فالعداوة التي كان مبعثها الدين يجب أن تزول • ولكنه يجيب ويؤكد أن موقف المدنية الغربية من العالم الإسلامي ما زال ولن يزال موقف المستميت في القتال •

يقول محمد أسد ص ٥٩ : « ولقد يتساءل بعضهم فيقول : كيف يتفق أن نفوراً قديماً مثل هذا ــ وقد كان دينياً في أساسه وممكناً في زمانه بسبب السيطرة الوحيدة للكنيسة النصرانية ــ يستمر في أوروبة في زمن ليس الشعور الديني فيه إلا قضية من قضايا الماضي ؟

ليست مثل هذه المعضلات موضع استغراب أبداً ، فإنه من المشهور في علم النفس أن الانسان قد يفقد جميع الاعتقادات الدينية التي تلقنها أثناء طفولته ، بينما تظل بعض الخرافات الخاصة ــ والتي كانت من قبل تدور حول تلك الاعتقادات المهجورة ــ في قوتها تتحدى كل تعليل عقلي في جميع أدوار ذلك الانسان ، وهذه حال الأوربيين مع الإسلام • فعلى الرغم من أن الشعور الديني الذي كان السبب في النفور من الإسلام قد

أخلى مكانه في هذه الأثناء للإستشراف على حياة أكثر مادية ، فإن النفور القديم نفسه قد بقي عنصراً من الوعي الباطني في عقول الأوربيين • وأما درجة هذا النفور من القوة ، فإنها تختلف بلا شك بين شخص وآخر ، ولكن وجوده لا ريب فيه • إن روح الحروب الصليبية ــ في شكل مصغر على كل حال ــ ما زال يتسكع فوق أوروبة ولا تزال مدنيتها تقف من العالم الاسلامي موقفاً يحمل آثاراً واضحة لذلك الشبح المستميت في القتال » •

كانت الحروب الصليبية مبعث نهضة في البلاد الأوربية ، وكانت عامل وحدة وكانت مثيرة لحمية جاهلية ، وكانت سبباً هاماً في ولادة مدنية هي المدنية الغربية ولكن الهدف الوحيد الذي كانت أوربة توجه إليه سهامها هو الإسلام والمسلمون • أدركت أوربة وحدتها للمرة الأولى في التاريخ ، وكان ذلك نتيجة للحروب الصليبية وأثارت تلك الحروب حميتها الجاهلية وأكسبتها عنفواناً لم تدرك مثله من قبل ولا من بعد ، ولكن تلك الوحدة كانت في وجه العالم الإسلامي وذلك العنفوان كان في مقابلة العالم الإسلامي أيضا ، وولدت الحروب الصليبية فكرة المدنية الغربية التي أصبحت هدفا للشعوب الأوربية ، وكان بنيان تلك المدنية والدعائم التي قام عليها عداء الإسلام والمسلمين •

وسبيل الاستدلال على ما نقول الاستشهاد بمؤرخي العالم الغربي أنفسهم •

يقــول محمد أســد : « وهكــذا كان شــأن الحروب الصليبية ، فإنها أحدثت أثراً من أعمق الآثار وأبقاها في نفسية الشعب الأوربي • وإن الحمية الجاهلية العامة التي أثارتها تلك الحروب في زمنها لا يمكن أن تقارن بشيء خبرته أوروبة من قبل ، ولا اتفق لها من بعد • لقد اجتاحت القارة الأوروبية كلها موجة من النشوة ، كانت ــ في مدة ما على الأقل ــ عنفوانـاً تخطى الحدود التي بين البلدان والتي بين الشعوب والتي بين الطبقات • ولقد اتفق في ذلك الحين ، وللمرة الأولى في التاريخ ، أن أوربة أدركت في نفسها وحدة ــ ولكنها وحدة في وجه العالم الإسلامي• ويمكننا أن نقول من غير أن نوغل في المبالغة أن أوروبة ولدت من روح الحروب الصليبية • لقد كان قبل ذلك الزمن أنكلو ــ سكسون وجرمان وفرنسيون ونورمان وإيطاليون ودنماركيون ولكن أثناء الحروب الصليبية ولدت فكــرة المدنية الغربية ، وأصبحت هدفاً واحداً تسعى إليه جميع الشعوب الأوروبية على السواء • وكانت تلك المدنية الغربية عداوة للاسلام »[1] •

ويشير «باركر» مؤرخ الحروب الصليبية إلى أن هذه الحروب أكسبت أوربة وحدة واندفاعاً جديداً في سبيل الحياة واتساعاً في مدى النظر ، ولكن ذلك كله كان في سبيل مواجهة الإسلام وطعن أبنائه مرة ثانية واسترداد بيت المقدس • أما نص ما قاله فهو ما يلي :

---

(١) محمد أسد ــ الاسلام على مفترق الطرق ــ ص ٥٤ •

« لم تجد أوربة في الحروب الصليبية سبيلاً للاتحاد الداخلي ومؤثراً جديداً في شتى مرافق حياتها الداخلية فحسب ، ولكنها كسبت عن طريق هذه الحروب نظرة جديدة واسعة للحياة ، وكان هذا الاتساع في مدى النظر أعظم ما كسبته أوربة من الحروب الصليبية ، يضاف إلى ذلك نمو روح الكشف وتقدم الجغرافية ، فقد بدأ عصر الكشف الآسيوي الزاهر في القرن الثالث عشر وهو يعادل عصر الكشف الأميركي في القرن السادس عشر » .

ثم يقول : « وتلاشى ذلك الحلم الخادع الذي كان يرسم لأصحابه في الخيال صورة آسية وأوربة النصرانيتين تحصران بينهما الإسلام فلا يغدو بعد ذلك إلا عقيدة متضائلة منحصرة في فئة قليلة من الناس ، ذلك أن ولايات فارس كانت قد دخلت في الإسلام سنة ١٣١٦ ، وأسلم أهل وسط آسيا في منتصف القرن الرابع عشر كما أقفلت الصين أبوابها في وجه التجارة الأجنبية ، فكانت النتيجة انقطاع السبيل بالمسيحية ، على حين اتسعت رقعة الإسلام الذي أدرك شأواً بعيداً من الاتساع بظهور الأتراك العثمانيين ولكن أملاً جديداً تراءى للغرب الذي لا ييأس ، وكان هذا الأمل الجديد سبباً في أكبر انقلاب عرفه التاريخ ، فقد تساءل الأوربيون إذا كان طريق البر قد أقفل فلم لا تسلك أوربة طريق البحر ؟ لماذا لا تبحر إلى الشرق وتهاجم الإسلام من الخلف ، وبذلك يستعاد بيت المقدس » .

ويصف لنا توينبي الخطوات التي تمت لتطويق العالم الاسلامي ، ويجعل العامل الأساسي في ذلك اختراع نوع جديد من السفن •

يشير توينبي أولاً إلى أن الحضارة العربية الإسلامية كانت ما تزال عند نهاية القرن الخامس عشر تهيمن على الشاطىء الأفريقي المطل على المحيط الأطلسي والممتد من بوغاز جبل طارق حتى السنغال • ويشير أيضاً إلى أن المحيط الهندي كان بحيرة عربية وأن السفن العربية كانت تشق طريقها إلى أندونيسيا ، وقد هدت إلى الإسلام سكان جنوبي الفلبين من عنصر الملايو • ويشير أيضاً إلى أن الشعوب الإسلامية امتد سلطانها في عهد العثمانيين من البحر الأسود إلى نهر الفولجا ، ومن خلف هذه الجبهة الغربية اتسع العالم الإسلامي حتى وصل إلى المقاطعتين كانصو وشنسي في شمال غربي الصين ، كما امتد عبر إيران والهند إلى البنغال والدكن • ثم يقول :

« كانت هذه الكتلة الإسلامية الضخمة ـ الحاجزة ـ تحدياً ، استثار رد فعل قوي بين الجماعات الرائدة في المجتمعين المسيحيين المتعاصرين ـ ويعني بالمجتمعين المسيحيين الغربي والروسي ـ •

ففي العالم المسيحي الغربي ، ابتكرت الشعوب الساكنة على شاطىء الأطلسي ـ في القرن الخامس عشر ـ طرازا جديدا

من السفن العابرة للمحيطات ، ومكّن هـذا الاختراع السفينة من البقاء في عرض البحر شهوراً بدون انقطاع ، دون أن تضطر إلى أن ترسو على ميناء • وباستخدام هذا الطراز من السفن ، استطاع الملاحون البرتغاليون ـ بفضل نجاح تجاربهم في الملاحة في أعالي البحار ـ كشف جزائر ماديرا حوالي ١٤٢٠م وجزائر الآزور عام ١٤٣٢م • ثم نجحوا في تطويق الجهة العربية البحرية على الأطلسي بدورانهم عام ١٤٤٥ حول الرأس الأخضر وبلوغهم خط الاستواء عام ١٤٧١ إلى كاليكوت على الساحل الغربي للهند ، وسيطرتهم عام ١٥١١ على بوغاز ملقا ، واندفاعهم في غربي المحيط الهادى ليرفعوا علمهم في كانتون عام ١٥١٦ وعلى شاطىء اليابان عام ١٥٤٢ ـ ١٥٤٣ •

وهكذا في لمحة البصر ، اختطف البرتغاليون من أيـدي العرب ، السيادة البحرية على المحيط الهندي[١] » •

ثم يتكلم عن ملاحي الأنهار من القوزان الذين يتجهون شرقاً ويوسعون حدود العالم الروسي إلى أن يقول : « وهكذا استطاع العالم الروسي المنتشر بوصوله إلى تلك الحدود الجديدة، الإحداق لا بالعالم الإيراني وحده ولكن بالسهوب الأوراسية كذلك •

وهكذا في غضون فترة تقل عن القرن ، لم يقتصر الأمـر على الإحداق بالعالم الإسلامي ولكنه أمكن تطويقه تمامـاً •

---

(١) مختصر دراسة التاريخ ـ توينبي ـ ج٣ ـ ص٣٠٩ •

ففي أواخر القرنين السادس عشر وأوائل السابع عشر وضع الطوق حول رقبة الفريسة »[1] .

وتلت هذه الخطوة استعمار البلاد الإسلامية واحدة بعد الأخرى ، ففي منتصف القرن التاسع عشر عام ١٨٥٧ تم للإنكليز الإستيلاء على الهند سياسياً ، وفي السنة نفسها تم استيلاء الفرنسيين على الجزائر كلها ، ومن قبل انكلترا وفرنسة احتلت هولندا في بداية القرن السابع عشر جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) .

وبكلمة موجزة استطاع الإستعمار الغربي النصراني — في بحر قرنين من بداية القرن السابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر — أن يسيطر سيطرة تامة على المسلمين في وسط آسية وشرقها ، واتخذ نقطة ارتكاز رئيسية في أفريقية واستطاع أن يمد نفوذه الى قلب العالم الإسلامي في الشرق الأدنى ، وبذلك طوق العالم الإسلامي في الشرق والغرب . ولما جاءت الحرب العالمية الأولى وانقضت ، كان العالم الإسلامي كله تحت نفوذ المستعمر .

وكافحت البلاد الإسلامية التي وقعت تحت نير الاستعمار كفاحاً متواصلاً ، واستطاعت بعد سنوات أن تطرح بالأعداء خارج بلادها مرة ثانية ، ولكن الآثار التي خلّفها الاستعمار جديرة بالنظر العميق لأنها عميقة الجذور بعيدة الأصول ، تناولت أسس مقومات الأمة الإسلامية فغيرتها وبدّلتها ، وأنشأت من أبناء

---

(١) مختصر دراسة التاريخ — توينبي — ج٣ — ص٣٠٩ .

الأمة أوزاعاً انفصلت عن جسم الأمة وتبنت مفاهيم المدنية المعادية، وحاربت الأمة الإسلامية حرباً أشد ضراوة وأبعد في القسوة من حرب الأعداء .

يقول توينبي : « على أن دار الإسلام كانت في عام ١٩٥٢ سليمة الجوهر فلم ينتقص منها سوى بضع مقاطعات من أطرافها ، أما لبها الأساسي الممتد من مصر إلى أفغانستان ومن تركيا إلى اليمن فكان حراً من أي حكم سياسي أجنبي أو سيطرة أجنبية . ولم تأت سنة ١٩٥٢ حتى كانت مصر والأردن ولبنان وسورية والعراق قد انتشلت نفسها من طوفان الامبريالية البريطانية والفرنسية » .

واستقلت تونس والمغرب عام ١٩٥٤ والجزائر عام ١٩٦٢ ثم استقلت معظم البلاد الأفريقية وبعضها أكثرية مسلمة ــ مثل الصومال والسنغال ومالي وغينيا ونيجيريا ــ أو أقليات إسلامية ضخمة في بعضها الآخر . بالإضافة إلى حصول باكستان وأندونيسيا والملايو على الاستقلال .

هـ ـ آثار الحروب الصليبية في يقظة الغرب وتقدمهم :

أكسبت الحروب الصليبية أوربة وحدة واندفاعاً جديداً في سبيل الحياة واتساعاً في مدى النظر ، وكان ذلك كله في سبيل مواجهة الإسلام والمسلمين • ومن آثار هذه الحروب ما كسبته أوربة في حقول التقدم المادي والتقدم الفكري •

لقد عادت الجيوش الصليبية من البلاد الإسلامية بغير العقول التي جاءت بها بعد أن رأت الإسلام والمسلمين ، وشهدت مستويات من الفكر ومن الصلات الاجتماعية غير التي عهدتها في بلادها ، ولقد صدمت عقولها هذه الحقيقة حين شهدت لدى المسلمين مساواة بين الناس علمائهم وعامتهم ، وليس لأحد من الناس عصمة وليس لأحد من الناس أن يطاع في تشريع يأتي به من عند نفسه أو تفسير يختص فيه ، والإله إله واحد له الحكم وحده وله الأمر وحده • لقد صدمت تلك العقول الغربية التي لم تألف هذه المعاني من قبل بكل هذه الحقائق ـ والعقول لاتفكر إلا حين تصدم ـ وكان لكل هذه المعاني آثارها في يقظة المدنية الغربية ونبذها لتعاليم الكنيسة •

وقبل أن نشرع في بيان هذه الحقيقة الهامة نشير إلى الكسب

الذي أدركته أوربة في ميادين الحياة العملية ومجالات التقدم العلمي والصناعي •

يقول محمد أسد : « استفادت أوربة كثيراً من هذا النزاع ، وإن النهضة أو إحياء الفنون والعلوم الأوربية باستمدادها الواسع من المصادر الإسلامية والعربية على الأخص ، كانت تعزى في الأكثر إلى الإتصال المادي بين الشرق والغرب • لقد استفادت أوربة أكثر مما استفاد العالم الإسلامي ، ولكنها لم تعترف بهذا الجميل ولم تنقص من بغضائها للاسلام » •

ويقول المؤرخ النصراني العربي فيليب حتّى في كتابه « تاريخ العرب » : (ولا يخلو الأمر من حوادث أو أمثلة صريحة تدل على انتقال الأفكار العلمية والفلسفية من البلاد الإسلامية الى البلاد الغربية) •

ويبدو هذا المؤرخ متحفظاً غاية التحفظ فيما يقول ، وكأنما ينتزع الإعتراف منه انتزاعاً • ففي المثال السابق يهون الأمر ويقلل شأنه ويقول : « ولا يخلو الأمر من حوادث أو أمثلة صريحة » • ويجعل الحقيقة أمثلة وحوادث تقع على سبيل الندرة حين يقول : « ولا يخلو الأمر » وفي المثال الثاني يجعل الاستنتاج على سبيل الجواز لا على سبيل اليقين يقول : (ولما صرنا نرى عدداً من دور المعالجة والبيمارستانات وبنوع خاص من دور البرص تنشأ في القرن الثاني عشر في جميع أنحاء أوربة أصبح

من الجائز لنا الاستدلال على أن طريقة التداوي المنظم استمدت بعض حوافزها من الشرق الإسلامي) • وهكذا فالموضوع يعتريه الشك في نظر المؤرخ العربي النصراني ، ثم إن الطريقة الغربية استمدت بعض حوافزها من الشرق الإسلامي ، والحوافز الأخرى لها مصادر أخرى لا يذكرها المؤلف •

يقول المؤرخ السابق : (أما في ميدان الحرب فقد كان الأمر كما هو منتظر أشد ظهورا ••• وقد نشَّطت الحروب الصليبية أيضاً علم الحيل الحربية الحصارية وحسنته بما فيه من طرق الهدم واللغم واستخدام المجانيق والاعتماد على أنواع المشتعلات والمفرقعات ••• والظاهر أن البارود اخترع إما في سورية أو في أوربة اللاتينية) •

ولكن هنالك من الباحثين الغربيين من هم أكثر تأكيداً • وننقل عن هؤلاء ما سجله التاريخ بشأن نهضة المسلمين وما قدموه في ميدان العلم في موضوع الصيدلة والجراحة واختراع البارود وتقدم الدراسات الجغرافية واختراع الورق ، وما شهد به هؤلاء من أثر المسلمين في حضارة الغرب الحاضرة • ونحن نجتزيء ههنا بأمثلة يسيرة ، ومن شاء التفصيل فليرجع إلى المصادر التي فصلت القول في هذا الموضوع ومن أحدثها « أثر العرب في الحضارة الأوربية » لمؤلفه جلال مظهر • وأحد هؤلاء الغربيين « ميير هوف » • يقول بشأن الجراحة : « وظل علماء العقاقير في أوربة يستخدمون المؤلفات العربية في الصيدلة حتى ١٨٣٠م » •

ويقول « كامبل » بشأن الجراحة : « كانت الجراحة في القرن الثالث عشر في اسبانية ـ حين كانت في ظل المسلمين ـ تتمتع بسمعة أعظم من سمعتها في باريس أو لندن أو ادنبره ، ذلك أن ممارسي مهنة الطب في سرقسطة كانوا يمنحون لقب طبيب جراح ، وفي أوربة كان لقبهم حلاق جراح ، وظل هذا التقليد سارياً في إسبانيا حتى القرن السادس عشر » .

ويقول « غوستاف لوبون » بشأن البارود : لقد عرف العرب كيف يخترعون ويستعملون القوة الناشئة عن البارود ، وباختصار فهم الذين اخترعوا الأسلحة النارية » .

ويقرر « رينو وفافيه » أن البارود والمدافع اخترعا في سورية و في مصر ، ويؤيد بعض الباحثين هذا الرأي بأن « جوانفيل » فارس الحملة الصليبية ومؤرخها ـ الحملة التي قادها لويس التاسع عشر ضد مصر (١٢٤٩ ـ ١٢٥٠)م ـ يقرر أن المسلمين كانوا يقذفونهم بالنار الإغريقية التي تحدث صوتاً كالرعد .

ويقرر « كراتشكو فسكي » أن الأوربيين حتى بداية القرن الخامس عشر كانوا لا يرجعون لغير الجغرافية العربية ، وكانت خريطة « الإدريسي » الأثر الوحيد الهام في الكاربوغرافيا الأوربية قبل القرن الرابع عشر .

ويقول « ديورانت » صاحب كتاب قصة الحضارة : إن خرائط الإدريسي تعتبر القمة التي بلغها فن رسم الخرائط

في القرون الوسطى ، تلك الخرائط التي لم يكن لها ند من حيث الضبط والدقة ومن حيث المجال) •

وتقول الموسوعة البريطانية : « فلما سقطت دولة العرب في اسبانيا ، وانتقلت صناعة الورق من أيديهم إلى النصارى الذين هم أقل كفاءة منهم ، انحطت الصناعة وانحط الصنف ، وليس من شك في أن صناعة الورق دخلت إيطاليا عن طريق الاحتلال العربي لصقلية » •

لقد تأسست أول صناعة للورق في بغداد في سنة ٧٩٤ بوساطة الفضل البرمكي• ومن ثم انتشرت بسرعة فائقة في جميع أنحا العالم العربي ، وتحسنت الصناعة تحسناً ملموساً وأدى ذلك إلى تسهيل إنتاج الكتب ، فبينما يقول « غوستاف لوبون » في كتاب حضارة العرب : (ظل الأوربيون في القرون الوسطى زمناً طويلا لا يكتبون إلا على رقوق ــ من جلد الحيوان ــ وكان ثمنها المرتف عائقاً كبيراً وقف أمام انتشار المؤلفات المكتوبة) • يقول وا ديورانت في قصة الحضارة : « كان إدخـال هذا الاختــرا ــ يعني الورق ــ سبباً في انتشار الكتب في كل مكان ــ يعن في البلاد الاسلامية ــ » • ويذكر اليعقوبي : « أنه كان في زما أكثر من مائة بائع للكتب ــ وراق ــ في بغداد ••• ولقد رفض أحد الأطباء دعوة سلطان بخارى للإقامة ببلاطه لأنه يحتاج إل أربعمائة بعير لنقل مكتبته • ولما مات الواقدي تــرك ستما

صندوق من الكتب يحتاج كل منها إلى رجلين لحمله ، وربما ملك الصاحب بن عباد في القرن العاشر كمية من الكتب تقدر بما كان في مكتبات أوربة مجتمعة » .

ويقول دريبر : « ينبغي علي أن أنعي على الطريقة الرتيبة لتي تحايل بها الأدب الأوربي ليخفي عن الأنظار مآثر المسلمين لعلمية علينا » .

ويقول سارتون : « حقق المسلمون عباقرة الشرق أعظم لمآثر في القرون الوسطى ، فكتبت أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها صالة وأغزرهامادة باللغة العربية ، وكانت من منتصف القرن لثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم الارتقائية للجنس لبشري ، حتى لقد كان ينبغي لأي كان إذا أراد أن يلم بثقافة صره وبأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية » .

ويقول نيكولسون : « إن أعمال العرب العلمية اتصفت لدقة وسعة الأفق وقد استمد منها العلم الحديث ــ بكل ما تحمل ذه العبارة من معان ــ مقوماته بصورة أكثر فاعلية مما نفترض.»

ويقول سيديو : «تكونت فيما بين القرن التاسع والقرن خامس عشر مجموعة من أكبر المعارف الثقافية في التاريخ ، ظهرت منتوجات ومصنوعات متعددة واختراعات ثمينة تشهد لنشاط الذهني المدهش في هذا العصر ، وجميع ذلك تأثرت به .ربة بحيث يؤكد القول ان العرب كانوا أساتذتها في جميع فروع

المعرفة ، لقد حاولنا أن نقلل من شأن العرب ولكن الحقيقة ناصعة يشع نورها من جميع الأرجاء » •

ويقول جوستاف لوبون : « كان تأثير العرب في الغرب عظيماً للغاية ، فأوربة مدينة للعرب بحضارتها ، ونحن لا نستطيع أن ندرك تأثير العرب في الغرب إلا إذا تصورنا حالة أوروبة عنده أدخل العرب الحضارة إليها » •

وبعد هذا كله وأهم من هذا كله ، أثر الفكر الإسلامي في الفكر الأوربي • يقول الأستاذ العقاد في كتابه « أثر العرب في الحضارة الأوربية » :

(فلما توالى الاحتكاك بين المجتمع العربي والمجتمع الأوربي وتوالى معه الاحتكاك بين العقول والعقائد ، توالى كذلك ظهور الفهم الجديد والنزعة الجديدة إلى التفسير والإصلاح على نمط غير النمط الأوربي العتيق •••

وربما دلت على مصدر هذه الآثار نظرة واحدة في أرقام السنين التي ازدهر فيها اللاهوت المسيحي ونجحت فيها دعوة الإصلاح الديني واشتدت فيها الحملة على الرهبانية ، وأعقب ذلك الترخص المطرد في قيود النسك وقيود الزواج ، فلم يحدث شيء من ذلك قبل احتكاك أوربة بالحضارة العربية تارة في الأندلس وتارة أثناء الحروب الصليبية •••

واتصلت الدراسات الفلسفية والصوفية بين رجال الكنيسة، فكان من آثارها تلك الحملة القوية على نظام الرهبانية ، وتعززت هذه الحملة في البيئات الدينية بحملة أخرى في البيئات الأدبية قام بها أديب إيطالي يدين للثقافة العربية بمؤلفه الكبير الذي نسج فيه على منوال ألف ليلة وليلة وهو « الديكامرون » وعرض فيه الرهبنة للغمز والتشهير ...

فلم ينته القرن الخامس عشر حتى كانت مسألة الرهبانية قد وصلت إلى المفترق الحاسم بين مذهبين ، فأصدر المجمع الديني قراره بتحريم الزواج على رجال الدين من جميع الرتب والدرجات ، وتزوج « لوثر » امام المذهب الإنجيلي براهبة كاثوليكية قبل ذلك على سبيل التحدي والاحتجاج ، وكان لوثر من أكثر الناس إطلاعا على فلسفة القرون الوسطى لأنه كان استاذاً للفلسفة في جامعة « ويتمبرغ » ، ولم يكن غريباً عن مناقشات علماء اللاهوت وعلماء الكلام) .

كانت دعوة « لوثر » ومن بعده « كالفن » دعوة للإصلاح في الديانة النصرانية بلغت جذور النصرانية وأصول عقيدتها ، ولقد تناولت نقاطاً ثلاثاً اعتبرت ثورة على النصرانية وخروجاً عليها ، فلقد حكم المجتمع الديني على لوثر بالخروج على الدين وحكم عليه بالطرد واهدار دمه وتحريم قراءة كتبه .

وكانت النقطة الأولى : تمس جوهر الدين وتتصل بألوهية المسيح ، فقد رفض البروتستانت أتباع لوثر فكرة التثليث .

والنقطة الثانية : عصمة البابا وكونه صاحب السلطة المطلقة التي لا يجوز التعقيب عليها في تفسير نصوص الإنجيل وتحديد رأي النصرانية • ورأوا ههنا أنه ليس للبابا وحده حق احتكار تفسير الإنجيـــل •

والنطقة الثالثة : سلطـة الكنيسة على عقـول النـاس وأموالهم وتصرفاتهم ، وقد هاجموا في هذه الناحية صكـوك الغفران كما هاجموا موضوع رهبانية القسس ومنعهم من الزواج

وكانت هذه الدعوة المتأثرة بروح الإسلام وتعاليم الإسلا دافعاً قوياً لتحرير عقول النصارى الأوربيين وإطلاقها من أسر عبودية الكنيسة وسلطان البابا ، وكانت دعوة لاحترام العقـل البشري في البلاد الأوربية التي كانت تعاني أنواعاً من اضطها الفكر وظلم الانسان للانسان واستعباد عقله ووجدانه ، وكانت دعوة لرد اعتبار قيمة الانسان إليه ، وكانت نقطة انطلاق الانسان الأوربي للنظر والبحث والتأمل بعيداً عن قيود الكنيسة وأنكالها وتكبيلها للعقول ••• وكان كل ذلك مبدأ سير هؤلاء في نهضتهم تلك النهضة التي استمدت أسسها من تعاليم الإسلام ثم وجهت سهامها إلى معاداة الأديان والسخرية بالكنيسة وتعاليمها •• ونسيت أو تناست أولئك الذين كان لهـم الفضل الكبير في نهضتها ــ أعني المسلمين ــ واتهمت دياتتهم بما اتهمت به دياتتها ثم وجهت سهامها إلى الإسلام أيضاً • بل أضافت إلى كراهيتهـ

للأديان عامة ما تأصل في قرارة نفسها ، وغرس في أعماق وجدانها من عداء للإسلام وحقد قديم على أبنائه ، وسلكت بعد ذلك كما ذكر منصفوها سبل الجور كلها وتنكبت جوانب الحق والعدالة جميعهـا .

ويتلخص كل ما ذكرنا بنقطتين اثنتين :

أولاهما : أن الحضارة الغربية بكل ما فيها من ازدهار علمي وتفتح فكرى مدينة للشرق المسلم وحضارته وعلومه .

ثانيتهما : أن العامل الأساسي الذي بعث عقول الأوربيين من مرقدها وفك أسارها وأطلقها من قيودها ، مشاهدة نظم دينية تقترن بأطر فكرية وقواعد منطقية تخالف ما ألف هؤلاء الغربيون من كبت لعقولهم وتسخير لضمائرهم لتكـون أسيرة الكنيسة ورجال الدين يتصرفون بها كما يشاؤون ، وما كان هؤلاء ليشعروا بما هم فيهم من ظلم وعسف لو لم يروا أنظمة غير أنظمتهم وطريقة في الحياة غير طريقتهم . ولقد كان الذين تأثروا مـن رجالهم بالنظرات الإسلامية دعاة الثورة وكانوا رواد البحث والنظر .

وكان رد هؤلاء عنيفاً ، وكان ارتدادهم عن الدين شديداً يوازي العنف الذي كانت الكنيسة تسومهم إياه والعسف الذي كانت تنزله بهم .

ونسي هؤلاء بداية قصتهم ، وأوغلوا في حضارتهم وتنكروا لماضيهم ولأساتذتهم واغتروا كل الاغترار بعلومهم وما انتهوا

إليه من مكتشفاتهم ومخترعاتهم واستصغروا أمام علومهم كل علوم الأولين ، وبلغ الغرور لديهم غايته باعتبار أنفسهم ـ الجنس الأبيض ـ ممثلي البشرية ، ومن عداهم فهمج رعاع يضحّى به في سبيلهم .

وبلغت الرعونة بالشعوب الغربية مبلغها والحمق غايته ؛ وكان ذلك كله منذر لمدنيتهم بالدمار صارخ بهم أن هذه المدنية لا تقوم على أسس صحيحة ، وأنها مدنية فقدت عقلها وفقدت قلبها ، وأصدق تشبيه لهم ولمدنيتهم ما قاله كاريل : « إنهم يشبهون رجلاً أحمق بيده سلاح أشد ما يكون مضاء وخطورة » .

إنها تنظر إلى الأديان كلها نظرة واحدة وترى أن طبيعة الأديان واحدة والحق من ذلك بعيد . إن المجال بعيد بين دين يدعو إلى النظر ويقوم بنيانه على الفكر وعلى التأمل وعلى البرهان والدليل ، وبين دين يحارب الفكر ويحارب النظر ويقف في وجه التأمل الدقيق والبحث العميق . ولقد رأينا فيما سبق أن الأمم الغربية لم تقف في وجه الكنيسة والدين الذي ألفته إلا حين رأت الإسلام ورأت عدالته وحريته ، وحين تحررت هذه الشعوب من وطأة دينها استطاعت أن تنطلق في ميادين العلم ، ولكنها ظلت في جهل عميق كما ذكرنا بفطرة هذا الانسان وما يصلح له ، ولقد باءت النظم الاجتماعية والنظريات السياسية التي وضعتها المدنية الغربية لاسعاد هذا الانسان باءت كلها بالفشل

الذريع • استطاعت الشعوب الغربية أن تنطلق في ميادين العلم المادي حين تحررت من ظل الكنيسة ، ولكن الشعوب المسلمة كانت تحمل لواء العلم ولواء الحضارة حين كان الوعي الديني يقظاً في قلوب أبنائها ، فلما خفت هذا الوعي نقص نشاطها في البحث وضعفت سليقتها في النظر واستسلم أبناؤها إلى سطحية النظر والاكتفاء بقشور الأمور •

وهكذا كان الأمر كما قال الإمام محمد عبده : ما استطاعت الشعوب النصرانية أن تتقدم إلا حين تخلت عـن عقيدتها[1] ، وما استطاعت الشعوب المسلمة أن تتقدّم الا حين استمسكت بعقيدتها •

---

(١) هذا القول ليس صحيحا على اطلاقه فالنصرانية كانت ولازالت لها أثر في الحضارة الغربية وفي سلوك الغربيين ، واما وقوف الكنيسة في وجه العلم ، وانطلاق عصر النهضة بعد التخلي عن الكنيسة فهذا صحيح .

و ـ انحراف المسلمين عن دينهم :

انتهت الحروب الصليبية وانتهت عهود الاستعمار ولكن هل انتهت صلة العداء بين الشرق المسلم والغـرب النصراني ؟ هل كفت الدول الغربية النصرانية والشرقية الشيوعية عن التدخل في شؤون البلاد الإسلامية تدخلاً سافراً مكشوفاً في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى تدخلاً متستراً ؟ هل توقفت الألاعيب السياسية والارتباط بعجلة سياسة هؤلاء وخصوماتهم فيما بينهم ؟ هـل كف التبشير عن جهوده وقد كان أداة الاستعمار الهامة ؟ وهل كف الاستشراق وأصبحت غاياته أبعد مدى وأعمق نفـوذاً ، إذ غدا يرمي إلى تغيير النفوس واستعمار القلوب بدلاً مـن استعمار الديار والأوطان . إن المتأمل يجد روح الصليبية ماتزال تغطي أفق المدنية الغربية ، ويتجلى هذا واضحاً في مسألة فلسطين. وما يزال الغرب النصراني يبذل كل جهـوده ليستمر نفوذه في الشرق الإسلامي،ويبذل كل وسائله ليستمر المسلمون في تخلفهم.

لقد علم الاستعمار أن لدى المسلمين أداة وحيدة تستطيع أن تبعثهم من رقادهم وتفجر طاقاتهم وتعيد اليهم مكانتهم ، وهذه الأداة هي الإسلام والتراث الإسلامي . ولقد بذل الاستعمار غاية ما في طوقه ليضع في عقول الأغرار من أبناء المسلمين أن هذه

الأداة ــ الإسلام والتراث الإسلامي ــ قد أصبحت غير صالحة ، وكانت أولى أغراض المستعمر أن يقلل ــ بين المسلمين ــ من شأن الاسلام والتراث الإسلامي ، ولقد اختار وسيلته لذلك فيما أبرزه من المفارقة بين الغرب والشرق من تقدم الأول وتأخر الثاني •

ولقد اقتنع كثير من أبناء المسلمين بــأن أمامهم سبيلين : إما مجاراة الغرب في كل ما يأتي وما يذر ، وإما التأخر والقعود •

لقد تحررت البلاد الإسلامية سياسياً ، ولكن موجة فكرية تعادي مبادئها ومُثُلاً تحارب مثلها قد طغت على البلاد الإسلامية فعمّتها • لقد جلا المستعمر عن الديار ولكنه أسلم البلاد بكيده العميق إلى تشتت في جماعتها وانقسام في مبادئها ، وضعفت مناعة الشعوب الإسلامية أمام الهجمات الفكرية المناوئة لدينها ، ومنيت الأمة بالتخاذل وضعف روح الجهاد ، ونبتت في الجماعة الإسلامية نابتة تمجد الدعوات الباطلة وتتنكر لعقيدة الإسلام وترمي أبناء الإسلام بتهمة خيانة الأمة ، وترى فيهم أعداء فكرتها الذين يجب أن يقتلوا ويصلبوا وينفوا من الأرض ، وتمثل هذا كله بتقهقر الحكومات العربية أمام اليهود •

والذي يزيد الموضوع إيلاما أن غرور هــؤلاء بمدنيتهم وافتتانهم بمكتشفاتهم ومخترعاتهم ، لم يكن قاصراً عليهم ولكنه جر من ورائه كثيرين من أبناء المدنية الأولى وأصحاب الحضارة

السالفة ــ نعني الحضارة الاسلامية ــ ، لقد جهل هؤلاء ماضيهم وغفلوا عن مبادئهم وكانت قلوبهم خواء من أصول الدين الاسلامي وحقيقته ودعوته وفتحوا أعينهم على المدنية الغربية بتلك القلوب الخاوية ، فبهرت هذه المدنية أبصارهم وأخذت بألبابهم فصاغتهم بصياغتها وطبعتهم بطابعها وحملتهم على التنكر إلى أصولهم ومبادئهم وحضارتهم وتراثهم ، وركبت في عقولهم ما ركّب في عقول أبنائها من كراهية للقديم وكراهية للأديان ووزنها جميعها بميزان واحد ووصمها بوصمة واحدة .

وهكذا نشأ في المسلمين من يجهلون ماضيهم ويتنكرون له ويريدون أن يقطعوا كل صلة به ، وأصبح عدد أولئك الـذين يضعون الأمور موضعها نادراً كل الندرة ، أولئك الذين يعرفون ميزة المدنية الغربية وسبقها وتقدمها في مجالات العلم المـادي وما عليها ، وأن الذي قدمته ليس إلا حلقة من حلقات الحضارة العالمية أكمل السابقون فيها حلقات ووضعوا فيها لبنات ، وجاءت الحضارة الأوربية بعد هؤلاء جميعاً فوضعت لبنتها بعد مر العصور وأكملت حلقاتها . إن أولئك الذين يضعون الأمور موضعهـا قليلون كل القلة وهم يرون بأعين نافذة أن الحضارة الغربية إذا كان لها سبقها في العلوم المادية فليس الأمر كذلك في العلـوم الانسانية ، فلقد جهلت هذه الحضارة الانسان ولم تستطع أن تقدم إليه ما يسعده سعادة حقيقية وما ينقذه من المهالك والمخاوف،

ولم تقدم إليه إلا ما يزيده ضياعاً وحيرة وتأخراً في ميزان الإنسانية ...وهكذا فالمدنية الغربية لا تؤخذ بكل ما فيها فهي ليست على حق في كل ما تدعو إليه .

ولقد بدأ الانحراف في المفاهيم الإسلامية عند المسلمين جلياً منذ ذلك الحين ــ الحروب الصليبية ــ واتجه كثير من المسلمين كما هي الحال اليوم إلى ايثار العافية ، وتخلوا عن تبعات الجهاد وألقوا عن عاتقهم فريضة القتال في سبيل الله ، وفروا من مواجهة الأعداء وأعرضوا عن هذا الواجب بكثرة الصلاة والصيام والذكر والدعاء زاعمين أنهم ينجون بهذا من سؤال الله عز وجل وحسابه . تغير مفهوم حمل دعوة محمد عليه صلوات الله وسلامه وتبليغ رسالته ومتابعته في جهاده ومتابعة أصحابه في تضحياتهم ، وأغفلت الآيات الكريمة التي تحمّل المؤمن الأمانة التي عجزت السماوات والأرض والجبال عن حملها وتجعل حياته في سبيل الله وتجعل الشهادة أكبر أمانيه وأعظم غاياته . قامت تربية القرآن على بيع النفس وحب الموت في سبيل الله ، ولما تطاول العهد بالمسلمين قلبوا هذه المعاني وغدوا يحبون الدنيا ويؤثرون العافية ويكرهون الموت .

ولقد كان لمعاني الصوفية المنحرفة التي انحدرت إلى لمسلمين من رهبانية النصارى وفلسفة الديانات القديمة ، أثر كبير جداً في تغيير معاني الإسلام الكريمة ... فلقد قلبت هذه

الصوفية معاني الجهاد المشرقة والاهتمام البالغ بأمر الجماعة والارتباط بها وتربية النفوس في ميادين الجهاد ... قلبت هذه المعاني إلى اعتزال للجماعة وفرار إلى الزوايا والمغارات وترك للجهاد وإعراض عن الأمر بالمعروف وسكوت على الباطل ورضا به على أنه أمر الله وقضاؤه ، واستعاضت عن معاني الإسلام القوية بأخيلة وأوهام ورؤى مقترنة في كثير من الأحيان بأشد أنواع الإباحة .

وإن المتأمل ليقضي غاية العجب حين يرى الغزالي رحمه الله في دعوته إلى الإصلاح ومعالجته للنفوس ، بل معالجته الدقيقة لخفايا النفوس وعللها وأمراضها ، وحديثه المستفيض عن خاطرات القلب وهمسات النفس ، في كل هذا الحديث الطويل العميق الدقيق وفي الأجزاء الأربعة لكتاب (الإحياء) الذي يدعو فيه دعو[ة] حارة إلى ترك الدنيا وإخلاص العمل لله ومحاسبة النفس حساب[اً] دقيقاً ، في كل هذا لا يجد القارىء فصلاً خاصاً بالجهاد وقتال الأعداء ... يفصّل القول كما هو شأنه في الأبواب الأخرى ف[ي] تعريفه وفضله والدعوة اليه والاخلاص فيه . ولقد يتوقع المرء م[ن] مثل الغزالي ألا يكون أقل حرصا على الجهاد والدعوة إليه م[ن] بطرس الناسك الذي كان معاصراً له ، وكان يطوف البلاد ويدع[و] النصارى إلى قتال المسلمين . هذا في حين أن الجيوش الصليبي[ة] كانت قد وصلت إلى انطاكية عام ٤٩١هـ، وكانت تهدد بلاد المسلمي[ن]

بلداً بعد بلد حين كان الغزالي ـ رحمه الله ـ يدرس في المدرسة النظامية في بغداد ويعد العدة لترك منصبه والفرار من الدنيا إلى الوحدة والعزلة وعبادة الله وإخلاص العمل له .

ومن كبار الصوفية الذين عاصروا الحروب الصليبية ولم يكن لهم أثر في دعوة إلى الجهاد ولا في تحريض إلى القتال عمر بن علي المعروف بابن الفارض ولقد ترجم له الذهبي رحمه الله في كتابه ميزان الاعتدال وذكر بأنه : « ينعق بالاتحاد الصريح في شعره » . أي أنه كان يدعو دعوة صريحة إلى فكرة وحدة الوجود، ولقد مات ابن الفارض سنة ٦٣٢هـ وكان الصليبيون قد استطاعوا أن يستولوا على القدس عام ٦٢٥هـ[١] .؟

ويشعر المسلم العادي بشيء كبير من الأسى حين يرى أو يسمع أن العلماء تخلوا عن مركزهم في القيادة وميادين الجهاد ، ويمتلىء الفرد المسلم سروراً ونشوة حين يسمع عن عالم من علماء المسلمين يجمع بين الجهاد بالقلم جهاداً بالسيف ، ولقد كان الوصف الذي يهز قلوب الشبان من المسلمين وصف أصحاب رسول الله : (أنهم رهبان في الليل فرسان في النهار) . وكان ممن يتصف بهذه الصفات ابن تيمية عليه رحمة الله .

---

(١) استولى الصليبيون على القدس عام ٤٩٢هـ واستنقذها منهم صلاح الدين عام ٥٨٣هـ وولد ابن الفارض عام ٥٧٦هـ .

فلقد حمل ابن تيمية على الصوفية حملة شديدة ، ونصب نفسه للكشف عن حقيقتهم وشن عليهم حرباً شعواء ولا سيما وأن بعضهم مالأ التتار أثناء حملتهم على الشام .

ولقد كان مجيء التتار إلى الشام سنة ٧٠٢هـ حين أخذ ابن تيمية حينذاك ــ رحمه الله ــ يثبت القلوب ويعد الناس بالنصر ، ولكن دعاة الهزيمة أتوا الناس من ناحية الدين فقالوا كيف نقاتل المسلمين .

جاء في فتاوى ابن تيمية رحمه الله في الجزء الثامن والعشرين ص ٥٠٩ السؤال التالي :

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين في هؤلاء التتار الذين يقدمون إلى الشام مرة بعد مرة وتكلموا بالشهادتين واتسبوا إلى الاسلام ولم يبقوا على الكفر الذي كانوا عليه في أول الأمر فهل يجب قتالهم أم لا ؟ ...

فيجيب عليه رحمة الله بقوله :

« كل طائفة خرجت عن شريعة الإسلام الظاهرة المتواترة ، فإنه يجب قتالها باتفاق المسلمين وإن تكلمت بالشهادتين ، فإذا أقروا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلوات الخمس وجب قتالهم حتى يصلوا ، وإن امتنعوا عن الزكاة وجب قتالهم حتى يؤدوا الزكاة ... »

ولقد دخل ابن تيمية ميدان القتال محارباً ، والتقى قبل موقفه من القتال بالسلطان يحثه وجنده على الجهاد في سبيل الله ورد المعتدين وكان الى جانبه أخوه ، وظهر جند ابن تيمية على الأعداء ،وزال خطر التتار من بعدها واتجه نظر ابن تيمية بعد ذلك إلى الأعداء في الداخل الذين كانوا يقيمون في الجبال فقد مالؤوا التتار وشاركوهم الإفساد في الأرض .

أما في عهد الصليبيين فلم يكن ابن تيمية ... وكان حال المسلمين وأعدائهم كما قال العماد الأصفهاني في إحدى رسائله :

« وما ينقضي عجبنا من تضافر المشركين وقعود المسلمين ، فلا ملبي منهم لمناد ... فانظروا إلى الفرنج أي مورد وردوا وأي حشد حشدوا ... ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم إلاجارى جاره في مضمار الإنجاد وبارى نظيره في الجد والاجتهاد ... والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا وغفلوا وكسلوا ولزموا الحيرة وعدموا الغيرة ... » .

ولعل من الخير أن نقابل بين صفات المسلمين حين تأخر بهم الزمن وبين أسلافهم في القرون الأولى التي هي خير القرون :

ففي سنة سبع وسبعين ومائة يكتب الإمام عبدالله بن المبارك أبياتا إلى الفضيل بن عياض يعتب عليه فيها أنه ترك الجهاد وهاجر إلى مكة المكرمة يتعبد فيها ، والفضيل بن عياض يقول فيه صاحب

شذرات الذهب نقلا عن شريك القاضي : هو إمام الحرم شيخ الإسلام ، قدوة الأعلام ، حدث عنه الشافعي ويحيى القطان وغيرهما .. وكان ربانياً كبير الشأن ثقة نبيلاً عابداً زاهداً جليلاً . ويقول : قال الذهبي في القسطاس في الذب عن الثقات : فضيل بن عياض ثقة بلا نزاع . وقال شريك : هو حجة لأهل زمانه . قال له الرشيد : « ما أزهدك قال أنت أزهد مني لأني زهدت في الدنيا الفانية وأنت زهدت في الآخرة الباقية » . أقول وأي وخز أدق وأبلغ من هذا الوخز ؟ وقال له يا حسن الوجه أنت الذي أمرُ هذه الأمة والعباد بيدك وفي عنقك ، لقد تقلدت أمراً عظيماً . فبكى الرشيد وأعطى كل واحد من الحاضرين من العلماء والعباد بدرة وهي عشرة آلاف، فكلٌ قبلها إلا الفضيل، فقال له سفيان بن عيينه :أخطأت ألا صرفتها في أبواب البر فقال يا أبا محمد أنت فقيه البلد وتغلط هذا الغلط ، لو طابت لأولئك طابت لي . ولد الفضيل بسمرقند وقدم الكوفة شاباً ثم جاور بمكة إلى أن مات .

وهذا الرجل وهو على هذا الفضل والنبل والتقوى لا يسع صديقه عبدالله بن المبارك إلا أن يؤنبه على مجاورته بيت الله الحرام ويصفه باللعب في عبادته .

يروي ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »[1].

(١) سورة آل عمران ـ الآية ٢٠٠ .

يقول رحمه الله : وهكذا روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبدالله ابن المبارك من طريق محمد بن ابراهيم بن أبي سكينة قال : أملى علي عبدالله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس ـ وودعته للخروج وأنشدها معي ـ إلى الفضيل بن عياض :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... وهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبار خيل الله في ... أنف امرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

يشير عبدالله بن المبارك عليه رحمة الله إلى حديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « ولا يجمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم » .

كما يشير عليه رحمة الله إلى قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا »[1] .

قال : فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام ، فلما قرأه ذرفت عيناه وقال : صدق أبو عبدالرحمن ونصحني . ثم قال : أنت ممن يكتب الحديث ؟ قال : قلت نعم . قال : فاكتب

---

(١) سورة آل عمران ــ الآية ١٦٩ .

هذا الحديث جزاء حملك كتاب أبي عبدالرحمن الينا وأملى علي الفضيل بن عياض : حدثنا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن أبي هريرة : (أن رجلا قال يا رسول الله علّمني عملا أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله فقال : « هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر وتصوم فلا تفطر ؟ » فقال يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك • ثم قال النبي ﷺ : « فوالذي نفسي بيده لو طوقت ذلك ما بلغت أجر المجاهدين في سبيل الله ») •

هذا المعنى العميق الذي نجده في رسالة عبدالله بن المبارك ــ الذي مات شهيداً وهو يغازي ــ إلى أخيه الفضيل بن عياض نكاد لا نجد مثله في العصور التي تلت •

وهذا المعنى مأخوذ من صميم كتاب الله وحديث رسول الله ، فالأحاديث طافحة بمثل هذه الدعوة إلى الجهاد ، وآيات الكتاب ترمي إلى تكوين أمة من المسلمين لا تضع السيف ولا تترك الجهاد حتى تذل كل شوكةللكفر وتخضع كل دولة من دول البغي وتمتلىء الدنيا عدلاً •

هذه هي روح الإسلام ، وهذه هي رسالته •• هكذا فهمها أصحاب رسول الله وهكذا عملوا بها•

واذا أردنا مقارنة روح الجهاد في عهد الصحابة وفي القرون الأولى ــ التي هي خير القرون ــ وفي قرن عبدالله بن المبارك ، ثم في

القرون التي تلت الخامس الهجري والسادس والسابع : رأينا ميزان العقيدة يتدنى ، ويتدنى معه ميزان الجهاد • فمقياس العقيدة الصحيح هو الجهاد في سبيل الله ، والمؤمن إيماناً صادقاً لا يستطيع أن تقر نفسه ويهدأ باله ، والدنيا من حوله تعج بظلمات الكفر وتشيع فيها المنكرات •

وليست روح الجهاد منحصرة في القتال ولكنها روح حمل الرسالة والقيام بالدعوة وأداء حق الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان •

روح الجهاد هي روح حمل الرسالة ، وصاحبها في عناء دائم وجهاد متواصل يؤدي للرسالة كل ما تتطلبه من تبليغ دعوتها ونشر مبادئها والدعوة إليها بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن والسهر في سبيلها •

ومتطلبات الرسالة يجب أن تتم كلها ، كل جزء منها في حينه • فالمرحلة المكية كانت مرحلة نشر للدعوة الإسلامية وتبليغ لها واحتمال الأذى في سبيلها ، ولم يكن يسمح فيها حمل سيف أو استعمال قوة ولو حمل السيف المؤمنون في تلك المرحلة لكانوا مخطئين مخالفين • والدعوة في المرحلة المدنية اقتضت حمل السيف ولو ترك المؤمنون في ذلك الحين حمل السيف لخالفوا أمر الدعوة وقعدوا عن نصرتها •

فالرسالة بناء كامل من الجهاد ذو مراحل ، في كل مرحلة ضرب من الجهاد لا يصح أن يتم غيره • ولقد ترك المسلمون أنواع الجهاد كلها وأغفلوا روح الجهاد إغفالا تاماً •

وروح الجهاد قائمة على معنى هام هو إيثار حق الرسالة على كل ما سواها فالأموال والأبناء والجهود كلها تقدم في سبيل الرسالة •

فالفارق الأساسي بين من اتصف بروح الجهاد ومن لم يتصف بها : أن الأول يحمل في نفسه هماً ويعيش في سبيل الأمانة التي وضعت في عنقه ، وقد يكون الفرد عالماً ولكنه فاقد لروح الجهاد ولروح حمل الدعوة فيعيش لنفسه ولا يدرك المعاني الهامة التي هو مسؤول عنها ، فلا يبالي بدفع منكر ولا يهتم بتبليغ الدعوة ولا يمحض النصيحة لائمة المسلمين •

وروح الاسلام هي روح الجهاد ، وهي صفة أصحاب رسول الله والمسلمين الأوائل • وحين يتخلى المسلمون عن هذه الروح يشعرون بخواء قلوبهم وإن أدوا عباداتهم ، وهذا الذي يشعر به كثير من أبناء المسلمين ، وبسببه يسهل عليهم قبول الدعوات الباطلة • والذين يمثلون حمل هذه الرسالة أصدق تمثيل هم أصحاب رسول الله •

قال تعالى : «انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »[1] •

---

(١) سورة التوبة ـ الآية ٤١ .

يقول محمد جمال الدين القاسمي في تفسيره محاسن التأويل، عن ابن جرير :

(وقد روي عن ثلة من الصحابة أنهم ما كانوا يتخلفون عن غزاة قط ويستشهدون بهذه الآية .

ولما كانت البعوث الى الشام ، قرأ أبو طلحة رضي الله عنه سورة براءة حتى أتى على هذه الآية ، فقال : أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباباً ، جهزوني يا بنيّ . فقال بنوه : يرحمك الله ، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبي بكر حتى مات ، فنحن نغزو عنك . فقال : ما سمع الله عذر أحد ، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل .

وكان أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه يقول : هذه الآية ، ويقول : فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً ، ولم يتخلف عن غزاة المسلمين إلا عاماً واحداً .

وقال أبو راشد الحراني : وافيت المقداد بن الأسود ، فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص ، وقد فصل عنها يريد الغزو ، فقلت له : قد أعذر الله إليك ، فقال : أُنزلت علينا سورة البعوث : « انفروا اخفافاً وثقالاً »(١) .

وعن حيّان بن زيد قال : نفرنا مع صفوان بن عمرو ــ وكان والياً على حمص ــ فرأيت شيخاً كبيراً هرماً ، قد سقط حاجباه

---

(١) سورة التوبة ــ الآية ٤١ .

على عينيه ، من أهل دمشق ، على راحلته فيمن أغار إليه فقلت : يا عم ، لقد أعذر الله إليك ، قال : فرفع حاجبيه فقال : يا ابن أخي، استنفرنا الله خفافاوثقالا ، ألا إنه من يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده إليه فيبقيه وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله عز وجل) .

فرحم الله تلك الأنفس الزكية ، وحيّاها من نفوس باسلة ، باعت أرواحها في مرضاة ربها وإعلاء كلمته ، فأكرمت نفسها عن الاغترار بزخارف هذه الحياة الدنيا .

ولا سبيل لأن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وجهة التعليم في العالم الإسلامي

« إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه ، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد إيمانه أم ينقص ، وإنّ من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه » .

روى هذا الأثر أحمد بن حنبل ــ رحمه الله ــ عن الصحابي أبي الدرداء رضي الله عنه . وأقول قياساً عليه : ومن فقه الرجل وإيمانه أن ينظر أين تسير أمته ؟ وكيف تتوجه الأجيال في زمنه ؟ لذا رأيت ضرورة إلقاء أضواء حول وجهة التعليم في العالم الإسلامي .

اتجهت الحكومات العربية الحاضرة إلى إيثار لفظة (تربية) على لفظة (تعليم) مسايرة في ذلك وجهة النظر الغربية في استعمال كلمة (Education) وهي تفيد التربية والتعليم ، ولأن التعليم قد لا يؤدي إلى الغرض المطلوب من الحرص على المبادىء والمثل التي تحرص عليها الأمة .

والذي يبدو لنا أن لفظة العلم في استعمالها القرآني ليست قاصرة على مجرد العلم ، بل هي تشمل العلم والعمل فقوله تعالى :

« فاعلم أنه لا إله إلا الله »[1] ليس المراد به مجرد العلم النظري الذي ليس له أي تأثير وأي تفاعل في النفس • وكذلك قوله تعالى: « إنما يخشى الله من عباده العلماء »[2] ليس المراد به إلا الذين يعملون بما علموا ، وشأن العلم أنه يستلزم الإيمان والإيمانُ يستلزم العمل ، فإن لم يكن هنالك عمل كان العلم ناقصاً وكان الإيمان مختلاً •

ولقد انتقد سقراط بأنه جعل العلم وحده هو الفضيلة ، ولا يصح قوله إلا باعتبار ما يستلزمه من عمل • ولقد ذكر القرآن الكريم الذي لا يعمل بعلمه في قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً »[3] • والآية الكريمة تعطي صورة حية ناطقة لمن لا يعمل بعلمه ، وتشير إلى أن من العلم ما يخالط القلب ويمازج أجزاء النفس ، ومنه نوع يدخل إلى النفس ولكنه لا يؤثر فيها ولا يتأثر بها ، بل يبقى كسقط المتاع في زاوية من زوايا النفس ، وهذا أكبر من الجهل لأن صاحبه يخدع الناظر إليه ويخدع نفسه وهو في ثوب العلماء ونفسه تنطوي على جهالة عمياء •

---

(١) سورة محمد ــ الآية ١٩ .

(٢) سورة فاطر ــ الآية ٢٨ .

(٣) سورة الجمعة ــ الآية ٥ .

على أنا لا ننكر أن لفظة (ربَّى) أخصُّ من لفظة (علّم) • ومن صفات الله جل شأنه أنه رب العالمين • والـرب : المصلح والمدبر والجابر والقائم والسند ، والمربي والقَيم ّ والمنعم ، وهو جل شأنه رب العالمين يـُمدهم بما يحتاجون إليه ليبلغ بهم صفات الكمال •

وهذه التربية تشمل الجسم والعقل والوجدان والإرادة وكلَّ استعدادات الانسان ومواهبِه ، وهي تعمل على تنمية مواهب الفرد واستعداداته وقدراته حتى تعطي أفضل ما يمكن أن تعطيه من ثمراتها •

وهذه الطاقات التي لدى الناس وما عندهم من قوى نفسية ، استعدادات فطرية ومواهبَ عقليةٍ ، وما كسبوا من عادات وأفكارٍ وعواطفَ وانفعالاتٍ ورغباتٍ هي الثروة الانسانية البشرية وهي أعز وأثمن من كل ثروة أخرى •

وإن الأمم لتحرص حرصاً بالغاً حد الجشع لتكون لديها ثروة مادية ضخمة • ولقد كانت الثروة المادية في نظر الأمم العمادَ الأساسي لتفوق أمة على أمة ، أما اليوم فقد أصبحت ثروة الأمم لا تقاس بما تشتمل عليه أرضها من ذهب وفحم وحديد وأراض خصبة وينابيع ثرة ، ولكنّ المقياسَ الحقيقي لتفوّق أمة أصبح يـُقـَدر بما لديها من أفذاذٍ في العلم وأقطاب في البحث • وبتعبير آخر: أصبح مفهوم الثروة البشرية هو المتحكمَ في صعود الأمم وانحدارها

وتقدمها وتقهقرها • لقد أدرك الناس قيمة الثروة الإنسانية ، فأخذت الأمم المتقدمة بالعناية بها والحفاظ عليها ومنحها كل الفرص والوسائل لتنمو أحسن نمو يمكن أن تنموه وليجني المجتمع من نموها أطيب ثمراتها •

كانت الرغبة متجهة إلى الثروة المادية وتدعيمها والتضحية في سبيلها بالعامل الانساني وغيره ، وأصبح الأمر على العكس من ذلك تماماً حيث أصبح للثروة البشرية المكانةُ الأولى •

ذلك أنها هي التي تستطيع أن تتصرف بالقوى المادية جميعها التي سخرها الله تباركت أسماؤه ووضعها تحت امرة هذا الانسان•

بل الأمر أبعد ، فان الطاقةَ الفكرية أو المعنوية تستطيع أن تتصرف بالطاقات الفكرية والمعنوية والمادية • وان الأمم التي قطعت شوطاً بعيداً في عالم المكتشفات الحديثة تجد لديها اليوم سلاحاً أمضى من كل سلاح مادي في السيطرة على الشعوب المستضعفة • ذلك هو التأثير في عقول أفرادها وجماعاتها بغير قوة مكرهة ومن غير عنف ولا عَسف ، وأصبح الانسان يؤثر في عقل الانسان فيجتذبه إلى حظيرته ويدخله في جماعته ويستخدم طاقاته وكلّ ما أوتي من قوى مادية ومعنوية في سبيل مصلحته ومصلحة جماعته •

يقول جورج (أوربل) : إن الشيوعية والكنيسة تتشابهان في نظرتهما إلى خصومهما فهما تقولان إن هؤلاء الخصوم لا يمكن

أن يخلو حالهم عن أمرين : إما أنهم مخلصون ولكنهم حمقى ، أو هم ليسوا بحمقى وليسوا بمخلصين ، لأن الحقيقة قد تكشفت. والذين لا يؤمنون بها هم إما مجرمون أو بله . وعلاج المجرمين السجن أو الموت أو نوع من التعذيب يستخرج ما في رؤوسهم من أفكار مجرمة » .

ويقول الدكتور « براون » في كتابه (وسائلُ الإقناع) :
« إن الفرد في الحكومات الحديثة واقع تحت سيطرة أولئك الذين هم أصحاب القوة ، أولئك الذين يحاولون السيطرة على نفسه والاستمرار في السيطرة ومضاعفة تلك السيطرة على نفسه وعقله وإرادته على مرِّ الزمن .

اما في الحكومات الديموقراطية فالفئة التي تملك القوة هي أفراد الاتحاد الاقتصادي الذين تتجمع لديهم المصالح الاقتصادية .

وأما في ظل حكومة تحتكر جميع موارد الدولة كالدول الشيوعية ، أو في ظل كنيسة ذات سلطان : فالتأثير في الحالين مكشوف صريح هدفه نقلُ تعليماتِ الفئة الحاكمة إلى الجماهير واستبعادُ وجهات النظر الأخرى استبعادا تاماً .

وبعد كل هذا فإنا نقول إن الذي يعيش في ظل هذه الظروف (يعني الشيوعية) أقل عرضة للتأثير فيه وفي أفكاره من الأميركي والإنكليزي الذي يتوجس خيفة من أولئك المقنِعين المقنَّعين ، إن استعمال القوة في التأثير على الأفراد يحدث مقاومة . أما في انكلترا وأميركا فالأمر على غاية من الكيد والمكر والخفاء » .

واذا كان للثروة الإنسانية مثل هذه القيمة الهامة ، فالأمة التي تحرص على بقائها ، تحرص على أمرين :

أولهما : تنمية هذه الثروة لدى أفرادها بتنمية ما وهبهم الله من قوى واستعدادات دون تمييز بين غني أو فقير ، فلعل ما لدى الفقير من موهبة يفوق ما لدى الغني • وتنمية هذه الثروات يكون بأن تسير حسب القوانين التي خلقها الله لها وبأن تُقدمَ لها خبرةُ الأجيال وتجاربُ الناس وثمراتُ ما انتهى إليه العقل البشري •

والأمر الثاني : أن تكون هذه التنمية في سبيل المجتمع الذي يعيش فيه الفرد ، ومعنى هذا أن يبلغ الفرد في الخبرة وكسب التجارب في الحقل الذي تخصص فيه الغايةَ التي ليس وراءها غاية ، ولكن ذلك ليُضمَ إلى ثروة المجتمع وليكونَ لبنة قوية متماسكة في بناء المجتمع ، ولا يكون ذلك إلا إذا آمن الفرد بعقيدة المجتمع واستمسك بمبادئه وحمل الرسالةَ التي يحملها المجتمع • ولا يتم ذلك إلا إذا تربى على عقيدة المجتمع ورضع تعاليمها وغـُذي بها منذ نعومة أظفاره ، فإن لم يفعل كان شراً ووبالاً على أمته التي غذته وربته •

كل هذا ــ أعني الأمرين الأول والثاني ــ يعطي للمدرسة عملها وواجبها : فهي تتسلم الطفل في السادسة والسابعة من عمره ، ولا تزال تكفله وتمده بوسائلها وأساليبها حتى يصبح شاباً يافعاً •

المدرسة إذن هي الوسيلة الفعالة لتربية الفرد حتى يبلغ غايته • والمدرسة هي التي تغرس في الفرد روح الجماعة وتنمي فيه قوة ارتباطه بأمته وتعزز انتماءه إليها ، وهي التي تعرفه برسالة أمته وتحمله على المشاركة فيها والنهوض بها • والمدرسة هي التي تعلم أبناءها أن يعيشوا من أجل أمتهم ، وأن يتحملوا التضحيات في سبيلها بل تعلمهم أن يعيشوا من أجل هداية الانسانية كلها •

والذي يجب لفت النظر إليه : أن الأمة القوية هي الأمة التي يجتمع أبناؤها على مبادىء واحدة وعقيدة واحدة • وقوة الأمة تقاس بمقدار الوحدة التي تجمع صفوف أبنائها ، وتزداد هذه الوحدة قوة كلما ازداد الأفراد تمسكاً بمبادئهم وحرصاً عليها وتفانياً في خدمتها •

وهكذا كانت المدرسة •• هي التي تبني الأمة وهي التي توجه سيرها •• ذلك أنها تبني أبناءً أقوياء يعيشون لأمة قوية موحدة • فمعنى التنشئة الاجتماعية : تربية الأفراد في سبيل أهداف المجتمع الذي يعيشون فيه •

يقول (سير برسنن) وهو يعتبر من آباء التربية في هذا العصر في انكلترا : « سلك الناس مسالك مختلفة لتعريف التربية ، ولكن الفكرة الأساسية التي لا يمكن أن يخلو عنها أي تعريف : « أن التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربوه لانشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها • إن

وظيفة المدرسة أن تمنح القوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ تلك القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة ، وتربي التلميذ تربية تؤدي إلى الاحتفاظ بحياة الشعب » .

ويقول جون ديوى في كتابه (الديموقراطية والتربية) :

« إن الأمة تعيش بالتجديد . وعملية التجديد عمادها تعليم الصغار ، وإن الأمة بأساليبها المتنوعة تُكوِّن من أبنائها ورثة صالحين لوسائلها ونظريتها في الحياة ، وهي تصوغ أبناءها وفقاً لعقائدها ومناهج حياتها » .

ويقول كلارك : « مهما قال القائلون في تفسير التربية ، فانه لا محيص لهم من الاعتراف بأن التربية : هي بذل الجهد للاحتفاظ بنظرية آمنت الأمة بها ، وعليها تقوم حياتها وتجاهد في سبيل خلودها وحملها إلى أجيالها القادمة » .

إذا كان هذا شأن التربية ، وهذا شأن المدرسة ، فما شأن المدرسة في البلاد الاسلامية وأين اتجاهها ؟ .

إن من المؤلم أن البلاد الإسلامية بأكملها قد سقطت في القرون الأخيرة تحت وطأة الاستعمار الغربي ، فلقد تمكن الاستعمار من مدّ نفوذه إلى قلب العالم الإسلامي وتمت له السيطرة التامة على المسلمين في آسية وأفْريقيا وأوربة . ولم تأت الحرب العالمية الأولى وينقضي أجلها إلا والعالم الإسلامي كله يرزخ تحت نير الاستعمار .

ولم يكن الاستعمار وحده سبباً في ضعف الأمم الإسلامية ، ل الأمر على العكس، إذ كان الضعف الداخلي سببا في الاستعمار، م كان حرص الاستعمار على أن يقتل كل بقية من بقايا الخير كل ومضة من ومضات التحفز للنهوض لدى الأمم الإسلامية ميعاً •

وكانت وسائله لذلك في غاية اللؤم والكيد والشر والإحكام، كانت المدرسة هي أولى هذه الوسائل وأقربها واقواها تأثيراً ، لا يتسع المَقام لدراسة مثل هذا الموضوع دراسة مستوفية بل ـ الكيد الذي لقيته الأمم الاسلامية أبعدُ من أن يحاط بـه لكنا نقتصر على أمثلة تشير إلى الموضوع إشارة :

يقول ساطع الحصري في تقريره عن مناهج التعليم في سورية:

« إن النظم العديدة التي وضعت في سورية ـ في عهد تنداب الفرنسي ـ إنما وضعت تنفيذاً لسياسة مرسومة بوضوح إتقان • ونستطيع أن نقول : إن غاية هذه السياسة كانت تأمين يطرة الثقافة الفرنسية والنظم الفرنسية على معارف البلاد سيطرة طلقة من غير التفات إلى ماتتطلبه أصول التربية السليمة والعلم صحيح » •

ويقول الدكتور عمر فروخ والدكتور مصطفى الخالدي كتابهما (التبشير والاستعمار) : [وكذلك كان للمبشرين بة أخرى من التعليم العالي : هي أن يؤثروا في قادة الرأي في

البلاد وفي الجيل الناشىء في الشرق الأدنى خاصة ذلك التأثير الذي لا يمكن أن يتحقق إذا لم يكن ثمة تعليم عال • وعلى هذ الأساس أوجد المبشرون البروتستانت كلية بيروت عام ٨٦٢ وجعلوا على رأسها المحترم دانيال بلس ، هذه الكلية أصبح فيما بعد الكلية السورية الإنجيلية ، ثم هي اليوم الجامعة الأميرك في بيروت ••• وحتى عام ١٩٢٢ كانت الجامعة الأميركية لا تزا تصر على تعليم التوراة •••

ــ ثم يقولان ــ : كلية روبرت في استانبول : هي كليـ نصرانية غير مستترة في تعليمها ولا في الجو الذي تهيئه لطلابها

ويقول (دانيال بلس) : « إن كلية بيروت وكلية استانبو ليستا أختين فقط بل هما توأمان » • إن هذه الكلية ــ يعن كلية روبرت ــ قد أنشأها مبشر ، ولا تزال إلى اليوم لا يتو رئاستها إلا مبشر •

ويقولان : وتتكلم المبشرة « آنا ميليغان » فتقول :

« في فصول كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشاوا وبكوات ، وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل ه العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ النصراني • وليس أ طريق إلى حِصن الإسلام أقصرُ مسافة من هذه المدرسة » •

ويقول المبشر تكلي : « يجب أن نشجع إنشاء المدارس و نشجع على الأخص التعليم الغربي • إن كثيرين من المسلمين

زعزع اعتقادهم حين تعلموا اللغة الإنكليزية . إن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس ـ يعني القرآن ـ أمراً صعباً جداً . »] .

زار مدرسة من مدارس التبشير بدمشق ممثل لوزارة التربية فكان فيما فاخرت به المدرسة التبشيرية عرضُ صور تلاميذها الأقدمين ومن بينهم أسماء كبيرة تكاد تستوعب جميع الرؤساء والوزراء الذين تقلبوا في قيادة البلاد السورية في أول عهد استقلال البلاد .

قد يظن ظان أن عدد هذه المدارس ضئيل في البلاد الإسلامية، ولكن الأمر ليس كذلك . إن المدارس التبشيرية لا تدع شبراً في البلاد الإسلامية كلها إلا ولها فيه مدرسة ومركز للتبشير . ولقد كتب لي أن أزور الساحل الغربي لأفْريقيَة فرأيت من نشاط التبشير وسوء تنظيم الجماعات الإسلامية ما رجعت معه حزين القلب منكسر الفؤاد ، ولقد رجعت أومن بأن ما قاله الأستاذ محمود شيث خطاب من أن ما كان ينشر في الصحف الغربية من أسفهم الشديد على أن التبشير بالإسلام على بساطة دعاته وضعف القائمين به غالب على جهود المبشرين النصارى ، إنما هو دعاية كاذبة يراد بها استمرار المسلمين الغافلين في نومهم وخدرهم .

رأيت بأم عيني وسمعت وأيقنت بأن جماعات التبشير ساندها القوى المنظمة قد أحاطت بالأمر إحاطة تامة ، وليس هنالك أية مقاومة تستحق أن تذكر .

والآن وقد بلغت من حديثي هذا المبلغ آن لي أن أتلو وثيقة
سبق أن تلوتها من قبل في كل مناسبة تتصل بهذا الموضوع
ذلك أنها وثيقة هامة تشرح الموقف شرحاً لا يكافئه شرح بأوضح
تعبير وأدق بيان ٠

أما مصدر الوثيقة فهو مجلة الاعتصام التي تصدرها الجمعية
الشرعية في بغداد وكان ذلك في عددها الصادر في غرة جمادى
الآخرة عام ١٣٧٥ هـ وكم يجدر بالمسلمين أن يتتبعوا مثل هذه
الوثائق ويحفظوها ، ومن المؤسف أن نجدها في الموسوعات الغربية
ولا نجدها منظمة في أي من المصادر الاسلامية ٠

وقد ذكر هذه الوثيقة الأستاذ محمد محمود الصواف في
كتابه المخططات الاستعمارية ٠

وصاحب هذه الوثيقة (القس صموئيل زويمر) عاش من
سنة ١٨٦٧ ــ ١٩٥٢م ٠ قال عنه نجيب العقيقي في كتابه
(المستشرقون) : « رئيس المبشرين في الشرق الأوسط تولى
تحرير مجلة عالم الإسلام التي أنشأها مع ماكدونلد ، وله مصنفات
في العلاقات بين المسيحية وبين الإسلام أفقدها بتعصبه واعتسافه
وتضليله قيمتها العلمية » ٠ ويذكر من مؤلفاته أربعة وعشرين
مصنفاً كلها تدور حول الاسلام ٠ والمتتبع لشيء من تاريخه يجد
قَساً مبشراً مستشرقاً ناشطاً في حرب الاسلام ، كل هذه الحياة
الطويلة التي قضاها وهو في كل مؤتمر الأداةُ المحركة والعقل

لفكر وترأس مؤتمر لكنو للمبشرين الذي عقد في الهند عام ١٩١ م. يقول صاحب كتاب الغارة على العالم الاسلامي :

« انتقل الرئيس زويمر في خطبته الافتتاحية إلى قسمها لثاني الخاص بالانقلابات السياسية التي حدثت في العالم لإسلامي فشكر الله على حدوث هذه الانقلابات ... »

وينقل الدكتور الخالدي والدكتور فروخ ما قاله بعينه قالا :
« قال زويمر إن الانقسام السياسي الحاضر في العالم الاسلامي دليل بالغ على عمل يد الله في التاريخ واستثارة للديانة المسيحية لكي تقوم بعمل ... »

أما الوثيقة التي لم أذكرها بعد فهي خطبة القس زويمر في مؤتمر المبشرين الذي عقد في جبل الزيتون في القدس إبان الاحتلال الانكليزي لفلسطين ، وقد أثير المبشر في ذلك المؤتمر واضطر إلى الإفصاح عن أمور ربما أخفاها لولا اضطراره إلى بيانها وكان الذي أثاره ما سمع من الخطب اليائسة التي قدمها كثير من المبشرين الدالة على إفلاس التبشير في البلاد الإسلامية .

كلمة القس زويمر :

« أيها الاخوان الابطال ، والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد في سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد الإسلام . فأحاطتهم عناية الرب بالتوفيق الجلي المقدس .

لقد أديتم الرسالة التي أنيطت بكم أحسن الأداء ، ووفقت لها أسمى التوفيق ، وإن كان يخيل إليّ أنه مع إتمامكم العم على أكمل الوجوه لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه .

إني أقركم على أن الذين دخلوا من المسلمين في حظير المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين . لقد كانوا كما قلتم أحد ثلاثة ... صغير" لم يكن له من أهله من يعرفه ما هو الاسلام أو رجل مستخف" بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوته وق اشتد به الفقر وعزت عليه لقمة العيش . وثالث" يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية . ولكن مهمة التبشير التي ندبتك دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست ادخال المسلمين ف المسيحية ، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً ــ كذا ــ انما هي أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله .

وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأم في حياتها . وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتـ الاستعماري في الممالك الإسلامية ، وهذا ما قمتم به في خلا الأعوام المائة السالفة خير قيام. وهذا ما أهنئكم عليه وتهنئك دول المسيحية والمسيحيون جميعا كل التهنئة .

لقد قبضنا أيها الاخوان في هذه الحقبة من الدهر مـ ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعلي في الممالك الإسلامية ونشرنا في تلك الربـوع مكامن التبشي

الكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والامريكية •

والفضل إليكم وحدكم أيها الزملاء أنكم أعددتم بوسائلكم جميعَ العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق التي مهدتم لها كل التمهيد •

إنكم أعددتم نشأً ــ في ديار المسلمين ــ لا يعرف الصلة بالله ، ولا يريد أن يعرفها وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية ، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طِبقاً لما أراده له الاستعمار المسيحي لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات •

فإذا تعلم فللشهوات ، وإذا جمع المال فللشهوات ، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء •

إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه وانتهيتم إلى خير النتائج وباركتكم المسيحية ورضي عنكم الاستعمار ، فاستمروا في أداء رسالتكم فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضع بركات الرب »[1] •

ويفضح الاستاذ (أبو الأعلى المودودي) رحمه الله هذا الاتجاه النكد اللئيم في رسالة يوجهها الى (البابا) جواباً عن رسالة البابا

---

(1) ــ المخططات الاستعمارية ــ ص ٢٩٦ ــ تأليف الاستاذ محمد محمود الصواف .

الموجهة إلى المودودي في ٨ ديسمبر ١٩٦٧ التي يدعوه فيها إلى الاحتفال بغرة يناير عام ١٩٦٨ كعيد للسلام •

وإجابة الاستاذ المودودي على أهمية بالغة فلقد بين الأمور بأسلوب صريح مباشر « ••• وهناك جانب آخر للمشكلة عظيم الأهمية ، فالمؤسسات التعليمية للمبشرين تُخَرِّجُ طبقة جديدة من الناس ، طبقة لا تتمسك بالنصرانية ولا تظل على دين الاسلام، وإنما تفصل نفسها عن تراثها ولا تطبق أي تراث أخلاقي آخر ، والنتيجة هي أن تصبح نموذجاً غريباً من الجنس البشري في مواقفها الأخلاقية ومعاييرها الثقافية ، وفي أخلاقها وتصرفاتها وفي لغتها وعاداتها الاجتماعية ، وباختصار في منهج حياتها برمته . وهي من وجهة النظر الدينية الصرفة تخرج من حظيرة الاسلام ولا تنجذب نحو المسيحية ، وانما تنساق بدلاً من ذلك إلى أحضان العلمانية والإلحاد والانحلال في الدين والخلق ، فهل بوسع أي رجل عاقل أن يعتبر هذه النشاطات من قبل بعثات التبشير النصرانية خدمة حقيقية للدين من أي وجه من الوجوه ؟ وهذه هي الأسباب الحقيقية التي تجعل المسلمين ينظرون نظرة ارتياب شديد تجاه هذه البعثات ، ويشعرون أنها لا تعمل من أجل نشر الدين وإنما تحيك مؤامرة ضد الإسلام والمجتمع المسلم ، والرجاء أن تولوا هذه الجوانب قدراً مناسباً من التفكير

وأن تبذلوا نفوذكم لإقناع الإرساليات التبشيرية بالكف عن هذه الأعمال التخريبية المكشوفة والمستورة »[1] .

وهنا ثلاث نقاط في خطبة « زويمر » أحب ان اقف عندها قليلا :

النقطة الأولى : يقول « ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست إدخال المسلمين في المسيحية ، إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله » .

أيقول مثل هذا القول إنسان يؤمن بالله ويسعى في الخير لعباد الله !! وما يدل هذا القول إلا على أن هذا الرجل إنما كان يعبد الشيطان وانه كان في خدمة أغراض الاستعمار .

ويتصل بهذه النقطة مسألتان أولاهما : الوسائل التي تبلغهم هذه الغاية . والثانية : الثمرات التي يجنونها من وراء هذا الإفساد .

أما الوسائل فقد ذكرها في قوله : « قبضنا في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الاسلامية ، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية » .

---

(١) المخططات الاستعمارية ـ ص ٢٧ ـ تأليف الاستاذ محمد محمود الصواف .

وأما النتيجة التي جنوها فقد ذكرها في قوله : « أعددتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الاسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد •

إنكم أعددتم نشأً في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها ، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية ، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طِبقاً لما أراده له الاستعمار النصراني لا يهتم بالعظائم ، يحب الراحة والكسل ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات » وباختصار فالنتيجة أن:

ــ جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية في قبضة المبشرين •

ــ إعداد جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الخط الذي رسمه المبشرون •

ــ النشء الإسلامي لا يهتم بالعظائم يحب الراحة والكسل ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات •

أصحيح كل هذا الذي ذكره القَس زويمر أم هو يبالغ في الأمر ليرد الثقة إلى أصحابه حين رآهم مشرفين على اليأس من إدراك غايتهم في مهمتهم التبشيرية ؟

لنأخذ المسألة الأولى مسألة المناهج :.وهي مسألة هامة ، فالمناهج إنما تُستوحى من أهداف الأمة وغاياتها البعيدة فهل نستطيع أن نقول : إن مناهج التربية في البلاد الإسلامية ترعى أهداف الأمة الإسلامية وغاياتها ؟

يشير زويمر إلى انتشار مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية ، وهو يعني ما ذكرنا إنه ليس هنالك شبر من أرض في بلاد المسلمين ليس فيه وَكر من أوكار المبشرين ، وليس من شك في أن هذه المدارس يؤمها في الأيام الأخيرة عدد ليس باليسير من أبناء المسلمين بل الذين يؤمونها هم أبناء علية القوم الذين يتسلمون مقاليد الأمور ويديرون دفة السفينة .

وهنا نجد الاستعمار والتبشير ودعاة المبادىء الهدامة يجتمعون في صعيد واحد ، ونجد دعوة هؤلاء المبشرين تبدأ في الميدان وحدها ثم لا يلبث هؤلاء أن يضموا إلى صفوفهم فريقاً من طلائع أبناء المسلمين وينتهي الأمر إلى حمل الدعوة من قبل أبناء المسلمين أنفسهم .

ولقد وضعت المناهج في البلاد الإسلامية تحت سيطرة الاستعمار والمبشرين ثم جلا المستعمر وغلب على البلاد الإسلامية كلها ثمرات التربية الأولى ، وكانت المقاومة يسيرة ثم كانت الغلبة للدعوات المناوئة .

وإن المتأمل في مناهج التعليم في البلاد الإسلامية ، لا يجد فيها أهداف الإسلام واضحة ولا يجد معالمه بارزة . وأهون ما تنتقد به هذه المناهج وذلك حين لا يكون في المادة مناوأة" صريحة للإسلام بأن المادة تُدرس مجردة من كل غاية ، وذلك كما هو الشأن في المواد العلمية البحته كالفيزياء والكيمياء وعلوم

الأحياء • يرى المتأمل أن مناهج هذه الموضوعات منقولة" عن المناهج الغربية وهي علمانية تدعي أنها تدرس العلم للعلم ، وفي هذه الدعوى من الخطر ما فيها ذلك أن هذه العلوم عندما تصف مظاهر هذا الكون وتكتشف نواميسه وتنظر اليها نظرة مجردة ، تحدث فجوة كبيرة في ذهن هذا المتعلم بتأكيد سلطان العلم والمادة ونسيان سلطان الله • أما النظرة الإسلامية فتربط نواميس هذه العلوم جميعها بمبدع الكون وخالق الأرض والسماء •

إن الشيوعية لا تدرس العلم مجرداً ولكنها تدرسه مقترناً بمبادئها وغاياتها وأهدافها • والمسلمون أولى من الشيوعية بربط العلوم بمبادئهم وأغراضهم وأهدافهم •

إن المناهج في البلاد الإسلامية ليست مصطبغة بصبغة إسلامية، وجو المدرسة ليس جواً إسلامياً ، وجل الأساتذة من حملة الشهادات ممن يتنكر للإسلام أو يفهمه فهماً منحرفاً مائلاً عن الصواب يبتعد فيه عن الإسلام ابتعاداً كبيراً على الغالب ، وحملة الفكرة الإسلامية قلة منبوذون •

ومن النتائج التي أدى إليها هذا الوضع إنقسام الطلاب في الفصل الواحد إلى فئات وأحزاب تختصم وتصطرع وتحمل كل فئة للفئات الأخرى أشد أنواع العداء •

وإن مثل هذا الانقسام ينذر بشر خطير ، إن وحدة الأمة وتماسك أفرادها هو السبيل الوحيد لصمودها في وجه الاحداث •

هذا الذي سبق يتعلق بالمناهج من حيث ارتباطها بغايات الأمة وأهدافها •

ولننتقل بعد هذا إلى وسائل التربية وطرائقها ، وهي الوسائل التي يراد بها تنمية مواهب الأفراد حتى تبلغ غايتها •

وهنا أيضاً نجد الوسائل عقيمة والطرائق سقيمة في كل البلاد الإسلامية ، حيث أسلمت لأيد غير أمينة ؛ فسلكت سبلاً تسر العدو وتؤلم الصديق •

إن الطرائق التي تتبع في المدارس في البلاد الإسلامية لا تؤدي إلى باحثين، ذلك أنها لاتعود الطلاب على البحث ولاتنمي لديهم الثقة بأنفسهم وروح الإقدام والمغامرة والابتكار والثبات والدأب ••• وإن الذي نشعر به أن أكثر أبنائنا يكرهون البحث ويسأمون من المطالعة ويشعرون بثقل الدرس على نفوسهم • وليس السبيل لتحبيبهم بالمطالعة أن نقول : إن المطالعة جميلة جداً لذيذة ذات قيمة كبيرة ، ولكن السبيل أن يشعروا هم بتجاربهم التي يمرون بها باللذة في المطالعة وعظم فائدتها ، السبيل أن يشعروا بنجاحهم في بحوثهم • فلا شيء يؤدي إلى النجاح مثلُ الشعور بالقدرة على السير في الموضوع والنجاح فيه •

يجب أن يعتاد الطالب مواجهة المشكلات العلمية ، ويجب أن يعتاد السير بنفسه في إيجاد الحلول لها • فإذا لم يتعود ذلك في دراسته الثانوية والجامعية ، لم يستطع في مستقبل أيامه

أن يضع مخططاً لمشروع ولم يستطع تنفيذ مشروع • ومن الكلمات الواخزة المؤلمة كلمة لمالك بن نبي يقول : « نحن نعمل دون أن نفكر ، أو نفكر دون أن نعمل » • يريد أننا فقدنا الارتباط الوثيق بين إحكام التخطيط والمضي في التنفيذ •

ومثل هذا النوع من التفكير لا يستطيع أن ينفذ إلى حقائق الأمور ولا يستطيع الوصول إلى كنهها ، ولكنه يظل على الغالب على هامش الحقيقة لا يفرق بين قشر ولب ولا بين حقيقة وشبه حقيقة ، وهذا هو طابع المسلمين عامة اليوم في تفكيرهم وفي مشروعاتهم وفي خلقهم وعباداتهم •

ثم إن هذه الطرائق التي تتبع في المعاهد والجامعات في البلاد الإسلامية لا تنشىء روح التعاون بين الطلاب، لأنهم يعتادون فيها القيام بأعمالهم فرادى • وليس هنالك مشروع يتعاون فيه جمع من الطلاب يؤدي كل واحد جزءاً منه، ويشعر كلٌ بمكانته في الجماعة بإمداده لها واستمداده منها • وينشأ من فقدان ذلك نموُ روحِ الأثرة عند الأفراد وعدمُ القدرة على الانسجام في أية مجموعة ، وإن روح الأثرة وتفضيلَ المصلحة الخاصة هي الروح التي يُغذى بها الطفل في منزله وهي الروح السائدة في مجتمعاتنا الإسلامية ، ويقترن بها إتهامُ الآخرين ورؤية عيوبهم والغفلة عن عيوبنا •

ويقترن بهذه التربية التردد والحذر والخوف من الإقدام •

وبعد هذا كله تتّسم الدراسة لدينا بطابع المصلحة ، وأنها وسيلة للعيش . وليس في جو المدرسة ولا في جو المنزل ما يذكر الطالب بأن هنالك أمةً تنتظره ، وأن رسالة لهذه الأمة يجب أن يحملها ويحسن أداءها ، وهنا نذكر كلمة زويمر النكدة اللئيمة :

« وبالتالي جاء النشء طبقاً لما أراده له الاستعمار النصراني ، لا يهتم بالعظائم ، يحب الراحة والكسل ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات . فإذا تعلم فللشهوات وإذا جمع المال فللشهوات وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء » .

إن طبيعة العقيدة حين تهيمن على قلب الفرد وتغلب على فؤاده أن تسيطر على دوافع النفس جميعها ونزعاتها وطاقاتها ، وتكون العقيدة في هذه الحال هي السائدة المسيطرة ، وتكون شهوات المرء ونزعاته ودوافعه كلها تابعةً خادمة للعقيدة الغالبة . فإذا خلا المرء عن عقيدة تملأ قلبه وتسيطر على فؤاده ، تغلبت الشهوات وظهرت على مسرح الحياة غرائز الفرد ودوافعه الأولى. وفي الحالة الأولى : يعيش الأفراد من أجل الرسالة التي يحملونها ويناضلون في سبيلها . وفي الحالة الثانية يفقد الأفراد أي معنى من المعاني السامية ، فيعيشون من أجل غرائزهم ويناضلون في سبيلها ، وفي هذه الحال تكون الغرائز هي العليا وتكون رسالة الأمة دون الغرائز ودون الشهوات . وفي الحالة الأولى تكون الأمة في حالة صعود وسير إلى الأمام ، وفي الحالة الثانية تنحدر الأمة إلى أدنى الدركات .

هذه الرسالة يسأل عنها المنزل ويسأل عنها المربون ؛ ولا ننسى أن الذين فقدوا هذا المعنى لا يمكن أن يقدموه إلى أبنائهم ؛ وأن الأم التي تحمل رسالة تضع هذه الرسالة في قلب ولدها وفي فؤاده ، والأم بقصص البطولة التي تقصها على ولدها قبل أن يأخذ مضجَعَه ، وباحلامها وآهاتها وأحزانها ، وجو المنزل وجو المدرسة والرحلات والحفلات والندوات ، وسلوك المدرسين ومواد الدراسة والمطالعات التي يطالعها الطالب ... كل هذه تفعل فعلها وتدع آثارها في الرسالة التي يحملها الطالب لأمته ولمستقبل أيامه .

ورأيي أن المدرسة في البلاد الإسلامية كما أخفقت في تخريج عالم مخترع مبتكر مخطط ، أخفقت أيضاً في تخريج أبناء يحملون رسالة الإسلام يعيشون في سبيلها ويناضلون من أجلها . ومن سنة الله تباركت أسماؤه أن يوجد أفراداً أفذاذاً يخرجون على رغم العقبات ويظهرون في ميدان النضال رغم كل الصعوبات ؛ وهؤلاء وإخوانهم ما يزالون يتعثرون في حركاتهم الإصلاحية في العالم الإسلامي ؛ وما ذلك إلا لأن العدو قد أحاط بالمسلمين من كل جانب يرقب أنفاسهم ونبضات قلوبهم . ومن الصعب جداً أن تفلت منه حركة إسلامية تدعو إلى استئناف الحياة الإسلامية .
والعامل الثاني أقوى أثراً وأبعد خطراً : المسلمون أنفسهم بضعف تفكيرهم وضآلة شخصياتهم وغلبة المنافع العاجلة على قلوبهم ،

وبعد هذا ننتقل إلى المدارس المتخصصة بالدراسات الإسلامية وطابعها في البلاد الإسلامية واحد ، يؤمها على الغالب الطلاب الذين ربوا في منازلهم تربية إسلامية ، والذين يحملون في قلوبهم معنى من معاني الرسالة ، والذين يوطنون أنفسهم في بعض الأحيان على إيثار الآجلة على العاجلة والاشتغال بالعلوم الشرعية الإسلامية وإن لم تعطهم من الدنيا أحسن منازلها .

وتتسم هذه المدارس الإسلامية على الغالب بتأخرها عن المدارس العامة بمبانيها وتجهيزاتها وتخلفها عن مظاهر المدنية الحاضرة إلى جانب ضعف في وسائلها التعليمية .

ويلاحظ أيضاً أن طلاب المدارس الشرعية على الغالب هم على شيء من ضيق الأفق وعدم القدرة على إدراك المشكلات الحاضرة والبعد عنها .

ويلاحظ أن الذين يلحقون بالدراسات الإسلامية في مرحلتها الجامعية من المدارس الثانوية العامة يتفوقون في الدراسات الإسلامية نفسها على طلاب المدارس الشرعية ، وليس لهذا إلا معنى واحد هو أن طلاب الدراسات العامة على ضعفهم أحسن حالاً من طلاب الدراسات الإسلامية ، وإن هؤلاء كانوا ضحية طرق قديمة وأساليب عتيقة وقد تكوّن لديهم على أثر ذلك عادات عقلية ونفسية تعوقهم عن السير في الدراسة والبحث .

ويلاحظ أيضاً أن طلاب الدراسات العامة الذين يتخصصون في العلوم أو الآداب إذا حملوا الرسالة الإسلامية كانوا أوسع أفقاً وأصفى فكراً وأكثر إقداماً وأحسن تأتياً للأمور •

وفي كليات الشريعة في البلاد الإسلامية مفارقات عجيبة ، فبينما نجد الطالب مثلاً يجيد ألفية ابن مالك إجادة حسنة حفظاً وفهماً ، إذا به لا يكاد يقيم لسانه في جملة واحدة ولا تستقيم له كتابة فقرة واحدة ، وكيف تتأتى دراسة الشريعة في كتابها الخالد المعجز وسنة نبيّها الذي أوتي جوامع الكلم ، لطالب لا يحسن العربية ولا يتذوقها !؟

لقد رأى كثير من أولي الرأي في البلاد الإسلامية ضرورة إدخال شيء من الرياضيات والفيزياء والكيمياء في المدارس الثانوية الشرعية ، وضج لذلك كثير من العلماء ورأوا أن هذه الدراسة لا تغني عن طالب الشريعة شيئاً ولكنها تكون مادة ضرار للمواد الشرعية نفسها •

وفي كلية الشريعة في دمشق مزجت الدراسات الشرعية بالدراسات القانونية •

وفي كلية الشريعة بمكة المكرمة امتزجت الدراسة الشرعية بالدراسات التربوية ومبادىء الاقتصاد وحاضر العالم الاسلامي والمجتمع الإسلامي ونظام الإسلام •

وكل هذا مكان لأخذ ورد ونقاش ونقد •

ورأيي المتواضع أن الدراسة في المرحلة الثانوية ، يجب أن تكون موحدة يأخذ منها الطالب بالنصيب الأوفى من الدراسات الإسلامية والعربية التي تحببه بإسلامه وأمته وتعرفه بماضيه وتراثه ، كما يأخذ بالنصيب الأوفى من دراسة العلوم ليعلم ما يجري في العالم اليوم وأين وصل العقل البشري ؟ على أن تكون هذه الدراسة مقترنة بالإيمان موجهة بتوجيه الإسلام .

وفي المرحلة الجامعية يفرغ طالب الدراسات الإسلامية لها وحدها ، يُخلص في دراستها وقتَه ويكرس لها جهده ويَعبّ منها وينهل . ولا أرى التقسيم المتخذ في الجامع الأزهر إلى ثلاث كليات الشريعة والأصول الدين واللغة العربية ، ذلك لأنها كلَّها تكون وحدة لا يجوز الفصل بينها ، كما أني أرى أن السنوات الأربع التي أخذت عن الجامعات الغربية لا تكفي بحال لطالب الدراسات الإسلامية . ثم انه لا بد لطالب الدراسات الإسلامية بعد تخرجه من المرحلة الجامعية وقبل شروعه في البحث من التخصص في أحد الموضوعات التالية :

١ ـ الدراسات التربوية والنفسية والاجتماعية ، وذلك إذا كان اتجاهه إلى التعليم والدعوة والإصلاح الاجتماعي .

٢ ـ دراسة شيء عن القوانين الوضعية ، وذلك في حال اتجاهه إلى القضاء ومعالجة المشكلات التشريعية .

٣ ـ دراسات اقتصادية إذا كان اتجاهه إلى معالجة المشكلات الاقتصادية .

٤ — دراسة شيء من العلوم الكونية إذا كان اتجاهه إلى فهم القرآن الكريم في ضوء العلوم الحديثة .

وبعد هذا يفرغ الطالب للبحث في الدراسات الإسلامية ، ويرجع إلى الأصلين الكريمين يتفهمهما في ضوء الشريعة والعلوم الحديثة والمشكلات الراهنة والنظريات القائمة والمذاهب المعاصرة.

وليس من حرج في أن ينفق على طالب الدراسات الإسلامية أضعافُ ما ينفق على طالب الطب والهندسة ، وأن يكون ما ينفق على كليــة الشريعة والدراسات الإسلامية لتجهيزها وإعدادها اضعافَ ما ينفق على الكليات العلمية بأجهزتها ومختبراتها .

والشيء الذي لا شك فيه أن طالب الشريعة في وضعه الحالي أضعفُ من مستوى الأحداث ، وأضعف من المستوى العادي ، وليس من شك في عدم قدرته على القيام بعبء حفظ الشريعة وعدم قدرته على مواجهة الأحداث القائمة وعجزه عن مواجهة الاعداء بمستوى علمي كمستواهم ، وعجزه عن مواجهة أبناء الأمة الذين ارتطموا بتيارات فكرية هائجة مائجة صاعدة هابطة شرقية وغربية.

بل أقول إنّ عجز كثير منهم في أداء مهمته التعليمية ، وليس أداءُ هذه المهمــة بالأمر اليسير وإن كان هنالك مــن الإخوة المتخرجين من ينازع في هذا ولا يرضى به ، فالسبب في ذلك هو تصور المهمة التي يجب أن يقوم بها المدرس .

ومما يجب ألا ننساه ، النظرة إلى كلية الشريعة في البلاد الإسلامية ، لست أنسى بعد أن رجعت من الأزهر أني عينت دون زملائي الذين يدرسون التاريخ والفلسفة والآداب بمرتبة واحدة ، ولقد عدل هذا من بعد بجهود بعض العاملين .

ولو أن دوائر التعليم أرادت أن تصنف كليات الدراسة في جامعة ما لوضعت الهندسة والطب في أعلى القائمة مع الدراسات العلمية ثم الدراسات النظرية ولجاءت دراسة الشريعة في آخر القائمة ونهايتها، وهذا التقسيم في نظرهم تابع لقوة الموهبة ومقدار الذكاء الذي تحتاج إليه كل مادة .

والفكرة السائدة أن الدراسات الإسلامية تكفيها المواهب الضعيفة ويجزىء فيها اليسير من الجهد .

والواقع من ذلك بعيد إذا أردنا وضع الأمور موضعها ، ذلك أن الدراسات الإسلامية هي التي تحيي الأمة وتوقظ الوعي في نفوس أفرادها ؟ والمتخصص في الدراسات الإسلامية هو المسؤول عن إعادة الأمة إلى حياتها الأولى وهو المسؤول عن معالجة مشكلاتها وتحسس معضلاتها وكشف مواطن الضعف فيها ، ومعالجةِ ذلك بما علم من كتاب الله وسنة رسوله متأسياً بالرسل والمصلحين مقتدياً بسيرة الذين جاهدوا في سبيل نصر دعوة الحق .

والحق أن رجل الدراسات الإسلامية هو رجل الدعوة والإصلاح ورجل العقيدة والايمان وهو في مكانة قيادة الأمة في

حياتها الاجتماعية ، وكل ذلك يحتاج إلى أعلى درجات الذكاء وأقوى المواهب وغاية الحصافة ، كما يحتاج إلى عمل ودربة وخبرة وإحاطة بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

وما أُتي المسلمون في كافة ديارهم في القرون الأخيرة بمثل ما أتوا من ضعف علمائهم وقلة زاد دعاة الإصلاح فيهم . وقاصمة الظهر في الدراسات الإسلامية الخلافات القائمة بين علماء المسلمين.

إن في هذه الخلافات : بعثرة الجهود وإضاعتها في الأمور الثانوية ، وتوجيهُ الطاقات واستنفادها في المعارك الجانبية . وكل ذلك يؤدي إلى ترك الواجب والقعود عنه .

إن للأعداء مخططات رهيبة ، ومن مخططاتهم إلهاء المسلمين في حروب داخلية واستنفاد طاقاتهم في جَبَهات جانبية ، وكلما اشتد الصراع وطال أمده وتعمقت جذوره واتسعت دائرته ، كان ذلك أبلغ في النكاية للمسلمين وأدعى لارتياح أعدائهم .

تفرق المسلمون أحزاباً وشيعاً بعد العهود الأولى ، وشغلوا عن كتاب الله بالأخذ والرد في ما أحدث الناس ، وأدخلت هذه البحوث والمناقشات في كتب التفسير والحديث والفقه والعقيدة ، واتسع التراث الإسلامي بمناقشات لفظية وخصومات لا طائل تحتها .

يروي ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (ص١٢٠/٢) عن قَرَظة بن كعب قال : « خرجنا فشيَّعنا عمر إلى صِرار

ـ موضع قرب المدينة على ثلاثة أميال منها في طريق العراق ـ ثم دعا بماء فتوضأ ، ثم قال لنا : أتدرون لم خرجت معكم؟ قلنا : أردت أن تشيعنا وتكرمنا . قال : إن مع ذلك لحاجة خرجت لها . إنكم تأتون بلدة لأهلها دوي بالقرآن كدوي النحل ، فلا تصدوهم بالأحاديث عن رسول الله ﷺ وأنا شريككم . قال قرَظة : فما حدثت بعده حديثاً عن رسول الله ﷺ » .

وللحديث روايات كثيرة منها : « فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ » .

أما ابن حزم فيطعن في الحديث ويرده (الاحكام ٢/١٣٧) ، ولا مطعن فيه كما يوضح ذلك الشيخ أحمد محمد شاكر ، وأما ابن عبد البر فيقول : وهذا يدلك أنه إنما أمرهم بذلك خوفَ مواقعة الكذب على رسول الله ﷺ ، وخوفَ الاشتغال عن تدبر السنن والقرآن لأن المكثر لا تكاد تراه إلا غيرَ متدبر ولا متفقه .

وإن كان لي أن أقول قولاً ، فرأيي أن ما روي عن عمر لا مطعن فيه ، وأن ما ذكره ابن عبد البر صحيح ولكني أضيف أمراً آخر في فهم قول عمر رضي الله عنه الملهم ؛ أقول إنه يشير إلى ما وقع فيه المسلمون بعدُ من هجر القرآن والاشتغال في بحوث لا طائل تحتها وخصومات لا تنير القلب ، ولا تضيء السبيل . وأقول : إن على طالب العلم أن يكون اشتغاله بالقرآن ينطلق منه ويرجع إليه ولا يأخذ من العلوم إلا بقدر ما يفهم به

كتاب الله من غير وكس ولا شطط ، والسنة تبيان لكتاب الله فلا بد منها لتبيين الكتاب فهي مقترنة به غيرُ منفصلة عنه ؛ وما تكلم به العلماء لبيان الكتاب والسنة لا بد من الأخذ بأصدقه وأعدله وأوجزه . أما الاستقلال بدراسة ما كتب العلماء كما هو الحال اليوم والإغراق في ذلك وهجر كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فلا يصح في رأيي .

ثم يجب أن تصفى المسائل الخلافية ويسلكَ إليها من أقرب السبل ويجتمعَ أهل السنة المتبعون لهدى السلف على سبيل واحدة قريبة موجزة ، وحبذا لو عقدت لذلك المؤتمرات ودعيت المجالس العلمية ليحدد ما هو ضروري بحثه وما ليس بذاك ، وليسلك إلى الضروري أقربُ السبل وأوجزها . ويكون ذلك متصلاً بكتاب الله ويكون ارتباط الطالب بكتاب الله يومه كله يتفهم معانيه و نتابع هديه . ولو أتيح لي أن أضع منهاجاً للدراسة لوضعته على المنهج الذي ذكرته : يجعل كتابُ الله مركز الاهتمام، وكلُ ما يدرسه الطالب من عقيدة أو فقه أو لغة يبتدىء من كتاب الله ويرجع إليه . وهنا أذكر قول ابن تيمية ـ عليه رحمة الله ـ في سجنه الأخير إذ قال ما معناه : آسف على كل لحظة قضيتها من عمري في غير كتاب الله .

خاتمة

يقولون كل الذي ذكرت معلوم ، ولكن الذي نبغي سبيلُ الخلاص ، وأقول : سبيل الخلاص معلومة ولكن الذي نبغي سبيلُ العمل . ولو فتح لنا سبيلٌ إلى العمل الخالص ليسر الله به سبيلاً إلى الخير .

وأعني بما أقول إن قلةً في العالم الإسلامي قد نذروا أنفسهم بإخلاص تام للعكوف على دراسة المشكلات التي يعانيها المجتمع الإسلامي ودأبوا على العمل في ذلك السبيل .

إن طبيعة الأخطار التي تحيط بالأمة والمصائب التي تنزل بها حرية أن توقظ وعي الأمة، ولكن الذين يدركون النذر قلة يسيرة جداً ، فالطفل لا يستطيع أن يدرك الخطر ، والجاهل الغرّ كذلك والأمة التي عادت إلى مرحلة الطفولة تحيط بها الأخطار وهي غافلة لاهية .

وأولئك الذين يقفون في الأمة يحذرونها الهاوية التي أشرفت عليها هم القلة الأفذاذ. ولقد كان محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ يصرخ بقومه فيقول لهم: «أنا النذير العريان». وكان إذا خطب عليه الصلاة والسلام كأنه منذر جيشاً يقول : « صبحكم ومساكم » .

إن من شأن الشدائد أن توقظ الناس ، ولقد حدثنا كثيرون فقالوا : إن الروح الإيمانية قد استيقظت في كثير من أفراد الشعب الألماني على إثر الحرب العالمية الثانية ، كما تحدث كثيرون بأن الشعوب العربية ظهرت فيها نهضات روحية بعد النكسات التي أصابتها في المدة الأخيرة . ومعنى هذا أن الشعوب المسلمة أصبحت تسمع صيحات الصائحين ودعوات الداعين ، ولو قيض لها من يقودها في هذا الأوان لسارت أشواطاً طيبة في سبيل الخير .

وذلك قوله تعالى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء »[1] . ومعنى الآية الكريمة: أن المصائب التي تنزل بالأمم الإسلامية لها فوائد عظيمة جداً ، وأعظم ما فيها أنها محك التجارب ، ففيها يظهر المؤمنون الصادقون وفيها يتقدم المجاهدون يعانقون الموت وينزلون في خضمّ الشدائد .

لم يتح بعد للأمة الإسلامية من يقودها قيادة تستطيع بها أن تغير صفحة التاريخ ، والأمة بمجموعها بل بكل فرد من أفرادها متفائلة أشد التفاؤل تثق بنصر الله وتؤمن أن الله غالب على أمره ناصر دينه معلٍ كلمته على رغم إفلاسها وكسلها . ولعل ذلك بالغ بها حد الاغترار وهي في هذا مخالفة لأمر الله وفهم سننه القويمة ذلك أنها ترجو النصر من عالم الغيب وهي قاعدة مستكينة ولكن ذلك يدل في الوقت نفسه أيضاً على عمق تأثير الايمان في

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية ١٤٠ .

النفوس ، وإن الأمة في قرارة نفوس أفرادها تعلم أن الأمور لا تدرك إلا بالتضحيات ، ولكنها في زعمها تنتظر ما يبدد الحيرة ويضيء السبيل .

إن الإصلاح لا يتم في ليلة واحدة ، وإن الخير لا يأتي دفعة واحدة ؛ وسنة الله في خلقه التدرج والنماء ، وإن صيحة الحق التي تريد أن تدوي في العالم لا بد لها من أطوار تمهد لها ، وإن واجب الفئة المستنيرة في مثل هذه الأيام أن تقوم بمثل هذا التمهيد .

وليس هذا التمهيد بالشيء اليسير ، إنه خطوة في سبيل انتزاع الأمة الإسلامية من الجاهلية التي وقعت فيها ، وهذه الخطوة تحتاج إلى تضحيات كثيرة وعناء كثير .

وهكذا كانت الخطوة الأولى أوجزها إيجازاً وأقتضبها اقتضاباً : أن يتنادى أفراد الطليعة ليحملوا المسؤوليات ويقدموا التضحيات ويدرسوا المشكلات ويضعوا المخطط ويقوموا بالعمل، وأول عمل هو: إصلاح التعليم في البلاد الإسلامية بمناهجه وطرائقه، وحمايته من المدرسين الذين هم أعداء الفكرة الإسلامية وهم أعداء الأمة ؛ وإعداد المدرسين الصالحين الذين يحملون الرسالة ويؤدونها بقلوب خاشعة وعقول نيرة ، والعناية بكليات الشريعة ومدارس البنات في البلاد الإسلامية لينشأ جيل مدرك وفاهم لكتاب ربه عز وجل وسنة نبيه ﷺ ، وآيات الله في الآفاق والأنفس ؛ فيحمل الرسالة الإسلامية وينقذ نفسه وبني جنسه .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفهرس